فرحة النفوس

بشرح

تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس

لابن عطاء الله السكندري

20



دار الكتب العلمية

سلسلة الإيمان والإحسان

(20)

فرحة النفوس

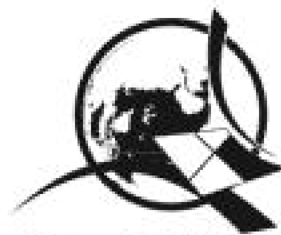
بشرح

تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس

لابن عطاء الله السكندري

تعليق

بلال أحمد البستاني الرفاعي الحسيني



دار الكتب العلمية®
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

Copyrighted material

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد....

منذ أكثر من عشر سنوات وقع في يدي كتاب" تاج العروس" لابن عطاء الله السَّكَنْدَري المشهور بِحِكَمه، فشرعت في قراءته، لكنه على صغر حجمه أخذ مني الكثير من الوقت لإنهائه، ذلك أن معاني معلوماته مضغوطة في كلمات معدودة - كعادة ابن عطاء في حِكمه - . ولأن موضوعه عن النفس وتزكيتها فكنت أقرأ الجملة عدة مرات وأتفكر فيها، فأجد الكاتب يكتب وكأنه يقرأ ما في نفسي، وما في أفكاري، فوجدته كطبيب مُجرِّب يصف المرض والدواء بدقة فائقة؛ فتخيلت أن ابن عطاء الله قد مرَّ بتلك الأمراض وجرَّب على نفسه تلك الأدوية ثم أنعم اللهُ عليه بالشفاء، وبعد ذلك كتب للناس ما عاشه وعاناه.

ولما أعدت قراءة الكتاب عدة مرات، وكنت أقرأ بالتوازي حِكَمه، فوجدت في الحكم وشروحاتها ما يشرح ما في هذا الكُتيِّب، لاح في خاطري أن أشرح كتاب تاج العروس من كتاب الحِكَم، وبذلك يندمج الفضل، ولكني لم أجد في الحِكم كل ما يلزمني لذلك، فاستعنت بكتب الغزالي رحمه الله تعالى، كالإحياء ومنهاج العابدين، واستعنت كذلك بِـ: تائية السلوك وعليها شرح الشرنوبي، والكتب التالية؛ المواد الغيثية

Copyrighted material

للمستغانمي، وشروح الحِكم للبوطي حفظه الله وأمد في عمره، ولابن عجيبة والنفري ولحسّون رحمهم الله تعالى وبكتب الحارث المحاسبي وعلى الخصوص؛ رسالة المسترشدين بتعليق أبي غدة رحمه الله تعالى، وقبل انتهائي من الكتاب بقليل ظهر كتاب" تاج العروس شرح وتعليق الدكتور محمد نجدات المحمد، فسررت بذلك، ولما اطلعت عليه وجدته قد شرحه بطريقة غير طريقتي، فطريقته هي جمع مواد العنوان الواحد من الكتاب ووضعها في فقرة واحدة ثم يعلق ويشرح، رغم ذلك استفدت منه وأكملت شرح الكتاب على طريقة وضع الحواشي.

هذا وإني لما كنت أجد حِكمة تتعلق بالموضع الذي أريد شرحه، كنت أكتبها وأكتب شرحها من الشروحات السابقة دون ذكر المصدر حتى لا أشتت القارئ، فيكفيه نقل عينيه من المتن إلى الحاشية!!

وإني أدعو الله تعالى أن يجزي كلَّ من أخذت عنهم - ولو معلومة واحدة - وأن يجعل ذلك في ميزان حسناتهم يوم القيامة، فلهم أجر الفاعل لأنهم دلوا على الخير.

وأخص بالذكر الشيخ عبد المجيد الدهيبي حفظه الله تعالى الذي راجع الكتاب كلمة كلمة وأبدى ملاحظات قيمة نافعة أثبت أغلبها، فله منا الشكر ومن الله الجزاء الحسن.

أرجو من الله تعالى أن يكون هذا الشرح نافعا للقارئ، وأن لا يضنَّ علينا أحدٌ بالنصيحة والنقد البنَّاء؛ حتى نستدرك ما فاتنا في طبعات أخرى.

واللهَ أسأل أن يغفر لي زللي في هذا الكتاب عن غير قصد، هذا وإن أصبت فمن توفيق الله، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بلال البستاني الرفاعي الحسيني

Copyrighted material

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا كتاب " تاج العروس الحاوي على تهذيب النفوس " تأليف الشيخ الإمام، الجامع بين عِلْمَيْ الشريعة[1] والحقيقة[2]: " تاج الدين، أبو العباس، أحمد بن عطاء الله السَّكَنْدريّ " رحمه الله تعالى، وأسكنه بُحبوحة جنته! وأفاض علينا وعلى المسلمين من بركته، وصلى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا محمد وصحابته، آمين!

1 - التوبة

أيها العبد، اطلب التوبةَ[3] من الله في كلِّ وقتٍ؛ فإنَّ اللهَ تعالى قد

---

11) فالمقصود بعلم الشريعة هنا العلم بظاهر الأمر والذي يستوي في معرفته كثير من الناس كالعلم بفرائض الصلاة وواجباتها ومفسداتها.

(2) والمقصود بالحقيقة هنا العلم ببواطن الأمور والذي يتفاوت فيه الناس كالعلم بروح الصلاة كالخشوع فيها والوقوف بالهيبة والخشية وغير ذلك.

(3) التوبة لغةً؛ الرّجوع فهي الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه، وهي عند التحقيق كما قال الغزالي؛ هي تنزيه القلب عن الذنب.

يقول أبو علي الدقّاق رحمه الله؛ التوبة على ثلاثة أوجه؛ التوبة أولها، والإنابة أوسطها، والأوبة آخرها، فجعل التوبة بداية والأوبة نهاية والإنابة أوسطهما.

فالتوبة صفة المؤمنين (وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون) .

=

Copyrighted material

=

والإنابة صفة الأولياء والمقربين: (من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب).
والأوبة صفة الأنبياء (نعم العبد إنه أواب) .
فمن تاب من خوف العقوبة فهذه؛ توبة
ومن تاب طمعاً في الثواب فهذه؛ إنابة
ومن تاب مراعاة للأمر فهذه: أوبة.
يقول ذو النون المصري رحمه الله تعالى: توبةُ العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة. ويقول أيضا؛ حقيقة التوبة أن تضيقَ عليك الدنيا بما رَحُبَتْ حتى لا يكون لك قرارٌ، ثم تضيق عليك نفسك كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.
يقول الإمام النووي رحمه الله تعالى: إن العلماء اتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصي واجبة، وأنها واجبة على الفَوْر لا يجوز تأخيرها سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة، والتوبة من مهمات الإسلام وقواعده المتأكدة.
ويقول الغزالي رحمه الله: " ثم عليك يا طالب العبادة بالتوبة وذلك لأمرين: أحدهما: ليحصُل لك توفيقُ الطاعة فإن شؤم الذنوب يورث الحِرمان ويُعقِب الخِذلان وإن قيْد الذنوب يمنع عن المشي إلى الطاعة لله عز وجل والمسارعة إلى خدمته لأن ثِقَل الذنوب يمنع من الخِفَّة للخيرات والنشاط في الطاعات، وإنّ الإصرار على الذنوب لمما يُسوِّد القلوب فتجدها في ظُلمة وقساوة لا خلوص فيها ولا صفاوة ولا لذة ولا حلاوة، وإن لم يرحم الله فستجرُّ صاحبَها إلى الكفر والشقاوة، فيا عجباً كيف يُوَفَّقُ للطاعة من هو في شؤم وقسوة وكيف يُدعى إلى الخِدمة من هو مُصرٌّ على المعصية ومقيمٌ على الجفوة، وكيف يُقرَّب للمناجاة من هو مُتلطِّخٌ بالأقذار والنجاسات، ففي الخبر عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا كذب (يعني أذْنَبَ) العبدُ كذبة تَباعَدَ عنه الملك ميلا من نتْن ما جاء به" (الترمذي) ، فكيف يصلح هذا اللسان لذكر الله عز وجل، فلا جرم لا يكاد يجد المصر على العصيان توفيقا ولا تخِفُّ أركانه لعبادة الله تعالى، فإن اتفق فبكدٍّ لا حلاوة معه ولا صفوة، وكل ذلك لشؤم الذنوب وترك التوبة، ولقد صدق الفُضَيْل بن عياض رحمه الله حين قال: إذا لم تقو على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك مَكبولٌ قد كبلتك خطيئتك فهذه هذه.

=

Copyrighted material

=

والثاني من الأمرين؛ إنما تلزمك التوبة لتُقْبلَ منك عبادتك (أي النافلة) ، فإن ربَّ الدَّيْن لا يقبل الهدية وذلك أن التوبة عن المعاصي وإرضاء الخُصوم فرْضٌ لازم وعامة العبادة التي تقصدها نفْلٌ فكيف يُقبل منك تبرعك والدَّيْن عليك حالٌّ لم تقْضِه؟ وكيف تَتْركُ لأجله الحلال والمباح وأنت مُصِرٌّ على فعل المحظور والحرام؟ وكيف تُناجيه وتدعوه وتُثني عليه وهو - والعياذ بالله - عليك غضبان فهذا ظاهِرُ حالِ العصاة المصرّين على المعصية والله المستعان".

وتكون التوبة من محاسبتين؛ محاسبة قبلها تقتضي وجوبها، ومحاسبة بعدها تقتضي حفظها، فالتوبة محفوفة بمحاسبتين.

*مما تكون التوبة ومتى وقتها؟

يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء: 17 - 18].

يقول سيد قطب في ظلاله:

"على أن الإسلام لا يغلق الأبواب في وجه الخاطئين، ولا يطردهم من المجتمع إن أرادوا ان يعودوا إليه متطهرين تائبين، بل يفسح لهم الطريق ويشجعهم على سلوكه. ويبلغ من التشجيع ان يجعل اللهُ قبول توبتهم - متى اخلصوا فيها - حقا عليه سبحانه يكتبه على نفسه بقوله الكريم. وليس وراء هذا الفضل زيادة لمستزيد.

إن التوبة التي يقبلها الله، والتي تفضل فكتب على نفسه قبولها هي التي تصدر من النفس، فتدلُّ على أن هذه النفس قد أُنشِئت نشأة أخرى. قد هزّها الندمُ من الأعماق، ورجّها رجّاً شديدا حتى استفاقت فثابت وأنابت، وهي في فسحة من العمر، وبحبوحة من الأمل، واستجدت رغبة حقيقية في التطهر، ونية حقيقية في سلوك طريق جديد.. (إنما التوبة على الذين يعملون السوء بجهالة.....)

والذين يعملون السوء بجهالة هم الذين يرتكبون الذنوب.. وهناك ما يشبه الإجماع على ان الجهالة هنا معناها الضلالة عن الهدى - طال أمدها أم قصُر - ما دامت لا تستمر حتى تبلغ الروح الحلقوم... والذين يتوبون من قريب: هم الذين يثوبون إلى الله قبل ان يتبين لهم الموت، ويدخلوا في سكراته، ويحسّوا

=

Copyrighted material

=

أنهم على عتباته. فهذه التوبة حينئذ هي توبة الندم، والانخلاع من الخطيئة، والنية على العمل الصالح والتكفير. وهي إذن نشأة جديدة للنفس، ويقظة جديدة للضمير.. (فأولئك يتوب عليهم). (وكان الله عليما حكيما) . ويتصرف عن علم وحكمة. ويمنح عباده الضعاف فرصة العودة إلى الصف الطاهر، ولا يطردهم أبدا وراء الأسوار، وهم راغبون رغبة حقيقية في الحِمى الآمن والكنف الرحيم.

ان الله تعالى لا يطارد عباده الضِعاف، ولا يطردهم متى تابوا إليه وأنابوا. وهو - سبحانه - غنيّ عنهم، وما تنفعه توبتهم، ولكن تنفعهم هم أنفسهم، وتصلح حياتهم وحياة المجتمع الذي يعيشون فيه. ومن ثم يفسح لهم في العودة إلى الصف تائبين متطهرين.

(وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال: إني تبت الآن) .

فهذه توبة المضطر، لَجّت به الغواية، وأحاطت به الخطيئة. توبة الذي يتوب لأنه لم يعد لديه متسعٌ لارتكاب الذنوب، ولا فسحة لمقارفة الخطيئة. وهذه لا يقبلها الله، لأنها لا تنشئ صلاحا في القلب ولا صلاحا في الحياة، ولا تدل على تبدل في الطبع ولا تغيّر في الاتجاه". (ا هـ الظلال) .

ويقول الله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝ ﴾ [الزمر: 54 - 55] وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون: 99 - 100].

يقول صلى الله عليه وسلم:

1 - إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر (أحمد والترمذي) .

2 - لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمن من عليها، فذاك حين ﴿ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ ﴾(متفق عليه) .

3 - من تاب قبل ان تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه (مسلم) .

4 - إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها (مسلم) .

=

Copyrighted material

=

فمن شروط صحة قبول التوبة أن تنبع من التائب قبل طلوع الشمس من مغربها، وهذه هي آخر علامات الساعة الكبرى.

*عناصر التوبة

التوبة - كما قلنا - هي الرجوع مُطلقا، وفي الشرع تنتظم بثلاثة أمور إنْ لم يتعلق الذنب بالعبد وإلا فهي أربعة.

1 - الإقلاع المباشر عن الذنب، ويكون ذلك بتركه والابتعاد عن دواعيه.

2 - الندم

3 - العزم على عدم العود (وهذا الندمُ سبَبُهُ) .

4 - التحلل من حق الآدمي.

فأنت ترى يا أخي ان أهم عنصر في التوبة هو؛ النَّدم، وفي ذلك ورد؛ "الندم توبة"، يعني أهم ركيزة ودافع فيها.

والندم هو شعور نفسي مصدره العِلمُ بأن الله شديد العقاب، وكذلك هو تعالى قابل التوب.

وهذا الشعور مؤلم مُلْذِع للنفس إن كان بها إيمانٌ مهما دقّ الذنب.

فكلما تذكر معصيته تذكَّر اطلاعَ الله عليه فهاجَ في قلبه الهمّ يعتصره ويشعر منه بضيق نفسي حتى وكأن الأرض ضاقت عليه بما رحبت، فيندفع بالعمل للتخلص من هذا الشعور، فلا يجد إلا الله، لأن الفرار من الله تعالى لا يكون إلاّ إليه ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾. ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ.. ﴾ فيرمي نفسه على أعتاب الله عز وجل، ويعترف له بذنبه ويعاهده على عدم العَوْد تصميماً أكيداً مِلْؤه الرَّجاء من أن الله يعينه على ذلك.

وللذنب دواعي فمن كانت دواعي ذنبه الصُّحبة السيئة فعليه تركها، أو إن كانت مِهْنتُه فعليه تركها (إن كانت محرّمة كالغناء والموسيقى أو العمل في متجر أو مطعم يقدم الخمر وغير ذلك..) والابتعاد عن مواطن مَظانِّ الذنوب والاعتقاد ان الله تعالى يرزقه.

فأصل التوبة شعور قلبي بقرب الله وقرب العقوبة من الوقوع، وهذا الشعور هو الذي يدفع للترك، فالندم عنصر أساسي في التوبة وإليه يكون نظر الله تعالى.

وقيل: "من موجبات التوبة الصحيحة كَسرةٌ خاصّة تحصل للقلب لا يسببها

=

Copyrighted material

=

شيء... قد أحاطت به من جميع جهاته، وألْقتْه بين يدي ربه طريحا ذليلا خاشعاً، كحال عبد جانٍ آبقٍ من سيّده، فأخذ فأُحْضِر بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بدّاً ولا عنه غناءً ولا منه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده.

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع، ما أنفعها للعبد، وما أجْدى عائدها عليه.. فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات والانطراح بين يديه والاستسلام له، فلله ما أحلى قوله في هذه الحال؛ أسألك بعزتك وذلي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي وبغناك عني وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سوايَ كثير، وليس لي سيدٌ سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وابتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت له رقبته ورغِم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذل لك قلبُه... فمن لم يجد ذلك فليتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة، وما أسهلها باللسان والدَّعْوى.

والله تعالى يرغبنا بالتوبة على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم إذ يقول؛ لله أفرح بتوبة العبد من أحدكم أضاع ناقته في الصحراء ثم وجدها وعليها طعامه وشرابه (أو كما قال) .

ويقول أيضا؛ التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وقد قيل؛ الشاب التائب حبيب الرحمن.

وفي أحاديث قدسية يدعوك الله للتوبة ولا يُؤْيِسْك من رحمته إذ يقول:

- "لو أن عبدي استقبلني بقراب الأرض ذنوبا، لا يشرك بي شيئا استقبلته بقرابها مغفرة (الطبراني) .
- ما غضبتُ على أحد غضبي على عبدٍ أتى معصيةً، فتعاظمها في جنْبِ عفوي، ولو كنتُ معجلاً العقوبة أو كانت العَجَلةُ من شأني لجعلتها للقانطين من رحمتي، ولو لم أرحم عبادي إلا من خوفهم مِنَ الوقوفِ بين يديّ لشكرتُ ذلك لهم، وجعلتُ ثوابَهم منه الأمن لِما خافوا (الديلمي) .
- ..... "إن أتاني عبدي ليلا قبلته وإن أتاني نهارا قبلته، وإن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعا وإن تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا وإن مشى إليّ هرولت

=

Copyrighted material

=

إليه، من أقبل عليّ لقيته من بعيد ومن أعرض عني ناديته من قريب، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد. ومن تصرف بحولي ألنت له الحديد، ومن أراد مرادي أردت ما يريد، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل طاعتي أهل كرامتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، أشكر اليسير من العمل وأغفر الكثير من الزلل، رحمتي سبقت غضبي وحلمي سبق مؤاخذتي وعفوي سبق عقوبتي، وأنا أرحم بعبدي من الأم بولدها.... " (من مدارج السالكين) .

*النفاق في التوبة

الشخص الذي يقول؛ ندمت على ذنوبي وتبت.. ويستغفر بلسانه في حين لا يكون نادماً بقلبه.. ولا مُقلعا عن ذنبه.. بل هو مصرٌّ عليه مستمر به... هذا الشخص مُبتلى بأسوأ مراتب النفاق في التوبة.

يقول الإمام الرِّضى - رضي الله عنه - المستغفر من ذنب ويفعله كالمستهزئ بربه.

والمرتبة التالية، مرتبة من ترك الذنب ولكن لم يندم بقلبه، فإذا قال: تبت فهو كاذب، لأن حقيقة التوبة الندم القلبي على الذنب، ومثل هذا؛ من يندم فعلا على ذنبه، ولكن لا يكون ندمه لله، بل للأضرار والابتلاءات الدنيوية التي سببها له الذنب، كأن يكون ارتكب ذنباً مُضِرّاً ببدنه أو تسبب بفضيحة له أو جرّ عليه سجنا أو عقوبات أخرى من الحكومة.. هذا الشخص إنْ قال أستغفر الله لهذا السبب فهو كاذب في دعواه التوبة الشرعية.

والمرتبة الأقلّ، مرتبة الشخص الذي ترك الذنبَ وهو نادمٌ جدا على ما فعل، ولكن سبب تألمه وحزنه هو ابتلاؤه بعذاب الآخرة وحرمانه من الثواب الإلهي؛ مَثَل توبة شخص من هذا القبيل واعتذاره من الله تعالى مثل شخص ظالم وجانٍ مُطارد من الحكومة لإلقائه في السجن عقابا له.. لذا هو مضطر للمجيء للمظلوم والاعتذار منه وطلب المسامحة، يقصد بذلك تحصيل رضاه حتى يتخلص من شر الحكومة.. في حين انه لولا ملاحقة الحكومة والخوف منها لما اعتنى بالمظلوم أبدا.

الخلاصة؛ هذا الاعتذار ليس حقيقيا وليس صافيا بل هو بهدف الخلاص من

=

Copyrighted material

=

العقوبة، والشخص الذي يندم على ذنوبه خوفا من جهنم وعذابها ويطلب العذر من الله تعالى ليتخلص من النار.. هذا الشخص لو اطمأن إلى انه لن يدخل جهنم لما تاب ولما تندم ولما اعتبر نفسه عاصيا.. اعتذار شخص كهذا هو ظاهري وليس حقيقيا، ولكن رحمة الله قضت قبول مثل هذه التوبة تفضلا منه تعالى، وهذه مرتبة السالكين وعموم المسلمين.

وهذا ان كان صحيحا ولا يقبل التشكيك ولكن الأمل بالفضل الإلهي ان الذين يندمون خوفا من العذاب والحرمان من الثواب ويتوبون.. إذا كانوا عازمين على الترك في المستقبل وتدارك ما مضى فإن الله بفضله يتقبل توبتهم وينجيهم مما يحذرون وينيلهم ما يؤملون أي الجنة.

ومن مفاسد التوبة

1 - أن تعتقد أن التوبة مجرد كثرة عبادات. هذه الكثرة تنقصها الجودة لهذا التلذذ بالعبادات لكثرتها تدل على أنك لم تعرف قيمتها أو تدرك حقيقتها. كلنا يسمع القرآن من قرّاء عظام مثل عبد الباسط ومصطفى إسماعيل والمنشاوي وغيرهم وتشعر بلذة عظيمة وتبكي ولو كنت تعبد الله تعالى بهذا السماع عبادة حقيقية توصلك لمرحلة متقدمة حتى تصبح من خاصة المؤمنين لبكيت عند كل آية وتأملت عند كل كلمة ولأشقتك هذه القراءة كما كان يفعل صلى الله عليه وسلم فقد كان يقوم الليل كله أحياناً بآية واحدة.

قليل من العبادة مع الجودة خير من كثيرها من غير جودة. فأنت تصلي ركعتين مع خشوعهما واستحضار القلب فيهما وتتم ركوعهما وسجودهما خير لك من أن تصلي ثمانين ركعة بدون خشوع ولأن تقرأ صفحة واحدة من القرآن الكريم بتدبر وتترك في قلبك بصمات خير لك من خمسين ختمة تُهدرها هدراً بدون تدبُّر. كلامنا هنا عن توبة الخاصّة الذين ذكروا في آية سورة الرعد وهم أولو الألباب.

2. أخلِص لله يكفك العمل القليل.

3. من آفات التوبة والاستغفار الكثير أنك تقول إني أصبحت الآن راضياً عن نفسي والله تعالى راضٍ عني وتصبح سيئاتك صغيرة في عينك وهذا هو المقتل.

4. تعتقد أنك بعد أن تبت إلى الله تعالى لست بحاجة لكرم الله تعالى ولفضله وتعجب بنفسك وبعدم انتباهك لخصائص التوبة تنسى عيوب نفسك وتنسى

=

Copyrighted material

=

عملك تصلي 100 ركعة وتصوم يوماً بعد يوم وتقوم بالعبادات بدون أن تفكر بالعيوب فيها من سرعة ورياء وإعجاب وبدون أن تفكر في عيوب نفسك من عُجب وغفلة وجبن وحب الدنيا وحب السُمعة فإذا قستها بأعمالك الكثيرة قد تأخذ كل أعمالك.

فإذا أردت أن تكون عبادتك عظيمة فليكن عملك متقناً وإن كان قليلاً صلّ ركعتين في جوف الليل متقنة أو صُم يوماً في الأسبوع أو الشهر صياماً متقناً صيام قلب وجوارح وبدون غيبة.

يقول ابن رجب في قوله تعالى ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝ ﴾ [الذاريات: 17 - 18]؛ أن إتْباع الاستغفار بعد قيام الليل لأن هؤلاء الذين قاموا الليل كله قد يكون سرى في نفوسهم عُجُب فأمَرَهم تعالى أن يُتبعوا طاعتهم بالاستغفار ولو تتبعنا كل الطاعات في القرآن الكريم لوجدنا أن الاستغفار مطلوب بعد الطاعات لأن العُجب من آفات العمل. وكل صاحب عبادة متميزة إذا أُعجِب بنفسه وعبادته والمستقلّ عبادة غيره لا تقبل عبادته. وإذا دخلك العُجب في أي عبادة مهما عظمت ورأيت نفسك أنك خير من المذنبين تكون قد أذنبت.

التوبة النصوحة؛ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ [التحريم: 8] هناك فرق بين تكفير الذنوب والمغفرة. ذكر ابن القيم وكثير من العلماء أن السيئات هي الصغائر (باستثناء بعض هذه الذنوب على حسب اختلاف آراء العلماء في حكمها) التي يكفّرها عمل آخر والتي لها كفّارة مثل اليمين لها كفارة وكل ذنب له كفارة مشروعة في كتاب أو سُنّة من فدية أو صيام أو إطعام أو تحرير رقبة يعتبر من الصغائر وقال تعالى ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ۝ ﴾ [النساء: 31] أما الكبائر فلا بد من إحداث توبة نصوحة لها معنى ذلك أن الذنب الكبير كالغيبة مثلاً والذنوب الكبيرة التي ليس لها كفارة لا بد من أن تحدث لها توبة. وإذا كنت من أصحاب الذنوب العظيمة أو الكبائر فعليك أن

=

Copyrighted material

=

تحدث لها توبة عظيمة (عقوق الوالدين ليس له كفارة) من أجل هذا التوبة لا بد أن تكون نصوحة ومعناها:

1. أن يأكلك الندم على ما فعلت والندم توبة.
2. أن تنوي بشكل جازم أن لا تعود.
3. أن تحدث لها عبادات سريعة تحاول بذلك أن تمحو هذا بهذا.

الوسائل التي نقي بها أنفسنا من الشرور؛ كل المنظومة هي من فِعل الله تعالى عز وجل وعليك أن تستمطرها بالدعاء ومن دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم: "اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا" والله تعالى يحب المتضرعين وكل هذه الألطاف الإلهية كيف يدرؤك ويرعاك ويدفع عنك وجعل لك معقبات من بين يديك ومن خلفك يحفظونك وهذا من أمر الله تعالى وعلينا أن نستمطره بالدعاء وما هلك مع الدعاء أحد.

واعلم أن التوبة لا تكون نصوحا إلا أن يُحْكِمَ العبدُ عشرَ توبات من كل ذنب؛ أولها تركُ العَوْد إلى فعل الذنب، ثم يتوب من القول به، ثم يتوب من الاجتماع مع سبب الذنب، ثم التوبة من السعي في مثله، ثم التوبة من النظر إليه، ثم التوبة من الاستماع إلى القائلين به، ثم التوبة من الهِمَّة به، ثم التوبة من التقصير في حقّ التوبة، ثم التوبة من أن لا يكون أراد إلا وجه الله خالصا بجميع ما تركه لوجهه، ثم التوبة في النظر إلى التوبة والسكون إليها والإدلال بها، وهذا مطالعة التوحيد، وعلوّ الإشراق بالمريد، ثم يشهد بعد ذلك تقصيره كله عن القيام بحق الربوبية لعظم ما يشهد من جلاله فتكون توبته بعد ذلك من تقصيره عن القيام بحقيقة مشاهدته، ويكون استغفاره من توبته لما ضعف قلبه ونقص همه عن مُعاينة مشاهده لعلوِّ مقامه، ودوام مزيده وإعلامه، ولكل مقام توبة، ولكل حال من مقامات التوبة توبة، ولكل مشاهدة ومكاشفة توبة، فهذا حال التائب المُنيب الذي هو من الله مُقرَّب وعنده حبيب، وهذا مقام مُفَتَّنٍ تواب؛ أي مُخْتَبَرٍ بالأشياء، مبتلى بها تواب إلى الله تعالى منها، راجع إليه عنها، ناظر إليه بها لينظر مولاه، أو ينظر بقلبه إليه أو إليها، أو يعتكف عليه أو عليها، أو يطمئن بوجودها إليه، أو إليها، أو يطالب إياه هربا منها أو إياها، فعليه من كل مشاهدة لسواه ذنب، وعليه من كل سكون إلى سواه عتب، كما له من كل شهادة علوّ، ومن كل

=

Copyrighted material

=

إظهار في الكون حكم، فذنوبه وتوباته إلى الله لا تُحصى.

يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى: " وأما الخروج عن الذنوب والتخلُّص منها، فاعلم أن الذنوب في الجملة ثلاثة أقسام؛ أحدها؛ ترْكُ واجبات اللهِ سبحانه وتعالى عليك من صلاة أو صيام أو زكاة أو كفارة أو غيرها فتقضي ما أمكنك منها. والثاني؛ ذنوبٌ بينك وبين الله سبحانه وتعالى كشُرْب الخمر وضرب المزامير وأكل الربا ونحو ذلك، فتندمُ على ذلك وتوطِّن قلبَك على ترْك العود إلى مثلها أبدا. والثالث؛ ذنوبٌ بينك وبين العِباد، وهذا أشْكَلُ وأصْعب، وهي أقسام قد تكون في المال وفي النفس وفي العِرض وفي الحُرْمة وفي الدين. فما كان في المال فيجب عليك أن تَرُدَّه عليه إنْ أمْكنك، فإن عجزْتَ عن ذلك لعُدْمٍ وفقرٍ فتستحلّ منه، فإن عَجَزْتَ عن ذلك لِغَيْبةِ الرجل أو موته وأمكن التصدق عنه فافعل، وإن لم يُمْكِن فعليك بتكثير حسناتك والرجوع إلى الله بالتذرع والابتهال أن يرضيه عنك يوم القيامة. وأما ما كان في النفْس فتُمكّنه من القِصاص أو أولياءَه، حتى يقتص منك أو يجعلَك في حِلّ فإن عجزت فالرجوع إلى الله سبحانه والابتهال إليه أن يرضيّه عنك يوم القيامة. وأما في العِرض فإن اغتبته أو بهته أو شتمته فحقُّك أن تُكَذِّب نفسَك بين يدي من فعلت ذلك عنده وأن تستحل من صاحبه، فإن خشيتَ ذلك فالرجوع إلى الله سبحانه وتعالى أن يرضيه عنك ويجعل له خيرا كثيرا في مقابلته، والاستغفار الكثير لصاحبه، وأما الحُرمة بأن خُنْتَه في أهله أو ولده أو نحوه فلا وجه للاستحلال والإظهار لأنه يولِّدُ فتنةً وغيظاً بل تتضرع إلى الله سبحانه ليرضيه عنك ويجعل له خيرا كثيرا في مقابلته، فإن أَمِنْتَ الفتنةَ والهَيْجَ وهو نادر فتستحلّ منه. وأما في الدين بأن كفّرته أو بدعته أو ضلّلته، فهو أصعب الأمور فتحتاج إلى تكذيب نفسك بين يدي منْ قلتَ له ذلك وأن تستحل من صاحبك إنْ أمْكَنَكَ وإلا فلابتهال إلى الله تعالى جداً والتندم على ذلك ليرضَه عنك. (أما إن كفّرته بلا تأويل ولا بقصد تشبيهه بالكافر فهذا خروج من الملة فيلزمه عند ذلك أن يتبرّأ وأن يعود إلى الإسلام بالنطق بالشهادتين) . وجملة الأمر فما أمكنك من إرضاء الخصوم عملت وما لم يُمكنك رجعتَ إلى الله سبحانه وتعالى بالتضرع والابتهال والتصدق ليُرضيه عنك فيكون ذلك في مشيئة الله سبحانه يوم القيامة والرجاء منه بفضله العظيم وإحسانه العميم أنه إذا علم الصدق من قلب العبد يُرضي خُصماءَه من خِزانة

=

Copyrighted material

نَدَبَكَ إليها، فقال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: 31]، وقال تعالى؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: 222]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إني لأستغفر[1] الله في اليوم سبعين مرة". (مسلم) .

=

فضله ولا حُكم.

علامات قبول التوبة ومن علامات قبول التوبة:

1. أن يكون العبد بعد التوبة خيرا مما كان قبلها.
2. أن لا يزال خائفا من ذنوبه مصاحبا لها لا يأمن مكر الله طرفة عين.
3. الشعور بالخوف والوجل وانخلاع القلب كلما خطر بباله الذنب الذي ارتكبه.
4. الندم الملازم للقلب على الذنوب المُتاب منها.

ومن علامات التوبة المردودة:

1. وهن العزيمة والحنين إلى الذنب مع تذكر حلاوته عند ارتكابه.
2. الطمأنينة والثقة بالنفس بأنه قد تاب حتى كأنه قد أُعطي منشورا بالأمان.
3. جمود العين واستمرار الغفلة وقسوة القلب.
4. ألاّ يستحدث بعد التوبة أعمالاً صالحة، لم تكن له قبل الوقوع بالذنب.

(1) روى صاحب نهج البلاغة أنّ علياً رضي الله عنه وكرّم الله وجهه قال لرجل قال بحضرته استغفر الله؛ ثكلتكَ أمّك، أتدري ما الاستغفار؟ قال الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معانٍ؛ أولها: الندم على ما مضى والثاني؛ العزم على ترك العَوْد إليه أبدا والثالث؛ أن تؤدي إلى جميع المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله عز وجل ليس عليك تَبِعة. الرابع؛ أن تعمدَ إلى كل فريضة ضيّعتها فتؤدي حقّ الله فيها والخامس؛ أن تعمد إلى اللحم الذي على السُحت (نبت) فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد على العظم وينشأ لحم جديد. والسادس؛ أن تُذيق الجسم أَلَمَ الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول؛ أستغفر الله.

Copyrighted material

سبيل التوبة

1 - المحاسبة

فإن أردت التوبة فينبغي لك أن لا تخلو من التفكر طول عمرك، فتفكر فيما صنعت في نهارك، فإن وجدت طاعة فاشكر الله عليها، وإن وجدت معصيةً فوبّخ نفسَك على ذلك، واستغفر الله وتُبْ إليه، فإنه لا مجلس مع الله أنفع لك من مجلسٍ توبِّخ فيه نفْسك. ولا توبخها وأنت ضاحكٌ فَرِح[1] ، بل وبّخها وأنت مُجِدّ صادق[2] ، مُظهِرٌ للعبوسة، حزين القلب، منكسر ذليل. فإن فعلتَ ذلك أبْدلك الله بالحزن فرحاً، وبالذُّلِّ عزّاً. وبالظلمة نوراً، وبالحِجاب كشفاً[3] .

---

(1) يقول الحسن البصري رحمه الله تعالى: الحزن في الدنيا تلقيح العمل الصالح، وضحك المؤمن غفلة من قلبه، وكثرة الضحك تميت القلب، فإن قلت؛ أما كان الصحابة الكرام يضحكون ويمزحون؟ قلت؛ نعم، ولكن ما كان ذلك منهم على طبيعة أهل الغفلة واللهو والمجون، فقد كانوا رضي الله عنهم يضحكون ويمزحون وإذا واجهتهم المسؤولية بأمرٍ أو نهي كانوا هم الرجال وقد وصفهم أحد التابعين بقوله؛ كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يتمازحون ويتبادحون (يترامون) بالبطيخ، فإذا جاءت الحقائق كانوا هم الرجال. ووصفهم آخر بقوله؛ كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من إذا أريد على شيء من دينه رأيت حماليق عينيه في رأسه تدور كأنه مجنون.

(2) قال العلامة ابن أبي شريف رحمه الله تعالى في حواشي العقائد: " الصدق عند الصوفية بمعنى استواء السرّ والعلانية والظاهر والباطن بألاّ تُكذِّب أحوالُ العبد أعمالَه ولا أعمالُه أحوالَه. فالصدق بهذا الاعتبار سيف الله تعالى في يد السالك يقطع به حِبال العلائق والعوائق التي تعترض طريقه في سيره إلى الله تعالى".
والصدق هو الحكم المُطابق للواقع، ومَحِلُّه اللسان والقلب والأفعال، وكلّ منها يحتاج إلى وصف يخصه؛ فهو في اللسان الإخبار عن الشيء على ما هو عليه، وفي القلب؛ العزم الأكيد وفي الأفعال؛ إيقاعها على وجه النشاط والحبّ.

(3) الشهوات والمعاصي هي كالستور المسدَلة بين عيني قلبك وهي البصيرة وبين =

Copyrighted material

وعن الشيخ مَكينِ الدين الأسمر، رحمه الله تعالى - وكان من السَّبعة الأبدال[1]- قال: " كنت في ابتداء أمري أَخيطُ وأتقوَّتُ[2] من ذلك، وكنت أعُدُّ كلامي بالنهار، فإذا جاء المساء، حاسبتُ نفسي، فأجدُ كلامي قليلاً، فما وجَدْتُ فيه من خير حَمِدتُ اللهَ وشكرتُه عليه، وما وجدتُ فيه غير ذلك تُبْتُ إلى الله واستغفرته". إلى أن صار بَدَلا.

=

رؤية أنوار الرب سبحانه وتعالى، فكلما ازددت من الله تقرّباً أزلْتَ تلك الستور حتى تصل إلى الله تعالى، والوصول إلى الله هو الوصول إلى العلم به.

(1) رجال الله عند الصوفية مرتبون كالآتي:

1 - الصالحون؛ هم من صلحت أعمالهم الظاهرة واستقامت أحوالهم الباطنة.

2 - الأولياء؛ هم أهل العلم بالله على نعت العيان؛ من الوَلْي وهو القرب، وقيل؛ من توالت طاعتهم، وتحقق قربهم واتصل ودهم.

3 - البدلاء؛ هم الذين استبدلوا المساويَ بالمحاسن واستبدلوا صفاتهم بصفات محبوبهم.

4 - النقباء؛ هم الذين نقبوا الكوْنَ وخرجوا إلى فضاء شهود المُكَوِّن.

5 - النجباء؛ هم السابقون إلى الله لنجابتهم، وهم أهل الجدّ والقريحة من المريدين.

6 - الأوتاد؛ هم الراسخون في معرفة الله؛ وهم أربعة، كأنهم أوتاد لأركان الكون الأربعة.

7 - الأقطاب؛ وسيأتي الحديث عنهم لاحقا. (معراج التشوف لابن عجيبة) .

فقد ورد عدة أحاديث عن الأبدال نختار منها: قوله صلى الله عليه وسلم؛ الأبدال في أهل الشام، وبهم يُنصَرون، وبهم يُرزقون (الطبراني وحسَّنه السيوطي) . وقوله صلى الله عليه وسلم: الأبدال بالشام، وهم أربعون رجلا، كلَّما مات رجلٌ أبْدَل اللهُ مكانه رجلا: يُسقى بهم الغيث، ويُنتصر بهم على الأعداء، ويُصرَفُ عن أهل الشام بهم العذاب. (أحمد وهو حسن).

(2) وهذا يدلك أن الصوفي الحق لا يكون عالةً على الناس يتصدقون عليه بل يعمل ويعيل نفسه وعائلته، وهذا هو التوكل الحق عندهم لا كما يدّعي بعض الآكلين الدنيا بالدِّين، لا جعلنا الله منهم!

Copyrighted material

واعلم أنه إذا كان لك وكيلٌ يُحاسبُ نفسَه ويُحاقِقُها[1] ، فأنت لا

---

(1) المحاسبة مطلوبة شرعا، بل هي واجبة كما قال العلماء لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحشر: 18].

المحاسبة: عتابُ النفْسِ على تضييع الأنْفاس والأوقات في غير الطاعات، وتكون آخر النهار، كما أنّ المشارطة تكون أول النهار، يقول لنفسه في أول النهار: هذا يوم جديد، وهو عليك شهيد، فاجتهدي في تعمير أوْقاتِهِ بما يُقَرِّبك إلى الله، ولو متِّ بالأمس لفاتكِ الخيرُ الذي تفوزين به فيه، وكذلك يقول لها عند إقبال الليل، ويحاسبها عند إدباره، هكذا يدوم عليها معها حتى تتمكن من الحضرة، فحينئذ يتّحد الوقت، وهو الاستغراق في الشهود، فلا يبقى من يُحاسَب، ولا من يُعاقَب (لموت النفس) ، فتحصَّلَ أنَّ المشارطة أولاً، والمحاسبةَ آخراً، والمراقبةَ دائماً ما دام في السَّير، فإذا حصلَ الوصولُ فلا محاسبة ولا مشارطة. (معراج) .

ومحاسبة النفس نوعان؛ نوع قبل العمل، ونوع بعده.

فأما النوع الأول؛ فهو أن يقف عند أول همِّه وإرادته، ولا يبادر إلى العمل حتى يتبيّن له رُجْحانُه على تركه.

قال الحسن رحمه الله؛ رحم الله عبداً وقف عند هَمِّه، فإن كان لله أمضاه، وإن كان لغيره تأخر.

وأما النوع الثاني؛ وهو محاسبة النفس بعد العمل، وهو أربعة أنواع؛ أحدها؛ محاسبتها على طاعة قصّرت فيها في حقّ الله، فلم تؤدها على الوجه الذي ينبغي. فيحاسب نفسه عن تقصيرها ويُلزمها أداءَها بأفضل ما يجب أن يكون.

الثاني؛ أن يحاسب نفسه على كل عمل كان ترْكُه خيراً له من فِعْله، فيحاسبها لماذا عمِلْتِ به؟ أليس من الأوْلى ترْكُه وأنّ عليها ألاّ تقوم به مرة أخرى.

الثالث؛ أن يحاسب نفسه على أمرٍ مُباح، أو معتاد؛ لمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحاً أو أراد به الدنيا وعاجلها، فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به.

الرابع: أن يحاسب نفسه على أمرٍ فعلَه فيه معصية لله عز وجل، وهنا يكون حسابه شديداً وعتابه كبيراً، كيف ارتكبت الحرام؟ كيف فعلت الذنب؟ كيف =

Copyrighted material

تحاسبه؛ لمحاسبته نفسَه، وإن كان وكيلا غير مُحاقِقٍ لنفسه، فأنت تحاسبه وتُحاقِقه وتُبالغ في محاسبته.

فعلى هذا ينبغي أن يكون عملُك كلُّه لله تعالى، ولا ترى أنك تفعل فعلا والله تعالى لا يحاسبك ولا يُحاققك(1) .

وإذا وقع من العبد ذنبٌ وقع معه ظلمة(2) ، فمثال المعصية كالنار،

=

فعلت المنكرات؟ كيف عصت النفس ربها؟ كيف وكيف...

ثم يبكي على ما أحدث ويندم، ويستغفر ويتوب ويتصدق ويعاهد الله ألا يعود إلى مثل ذلك أبداً.

وجماع ذلك أن يحاسب نفسه أولا على الفرائض، فإن تذكر منها نقصاً تداركَه إمّا بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهي، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئاً تداركه بالتوبة والاستغفار، والحسنات الماحية؛ ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾.

ما يعين على المحاسبة؛ قال أحد الفضلاء: "ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة؛ معرفتُه أنه كلما اجتهد فيها اليوم، استراح منها غداً إذا صار الحساب إلى غيره، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غداً.

ويعينه عليها أيضا؛ معرفته أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الرب سبحانه، وخسارتها؛ دخول النار والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تَيَقَّن هذا هان عليه الحساب اليوم".

(1) يقول تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝ ﴾ .

(2) يقول ابن عباس رضي الله عنهما: إن للحسنة نورا في القلب وزيْناً في الوجه، وقوة في البدن، وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق. وإن للسيئة ظلمةً في القلب وشينا في الوجه ووهناً في البدن ونقصا في الرزق وبغضةً في قلوب الخلْق.

قال المُناوي في فيض القدير؛ قال الشيخ ابن العربي؛ كان أشياخنا يحاسبون أنفسهم على ما يتكلمون به وما يفعلونه ويقيدونه في دفتر، فإذا كان العشاء حاسبوا أنفسهم، وأحضروا دفترهم، ونظروا فيما صدر منهم من عمل وقول، وقابلوا كلاً بما يستحقه، إن استحق استغفار استغفروا أو توبة تابوا، أو شكراً شكروا، ثم ينامون، فزدنا عليهم في هذا الباب الخواطر فكنّا نقيّد ما نحدِّث به

=

Copyrighted material

والظلمة دخانها، كمن أوقد في بيت سبعين سنة، ألا ترى أنه يسْوَدّ؟ كذلك القلب يسود بالمعصية فلا يطْهُر إلاّ بالتوبة إلى الله فصار الذل ظلمة والحجاب مقارِنا للمعصية، فإذا تبتَ إلى الله زالت آثارُ الذنوب[1] .

=

نفوسنا ونهمّ به، نحاسبها عليه.

(1) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إن العبد إذا أخطأ نُكِتَتْ - أي أثّرت - في قلبه نُكتة، فإن هو نَزَع - أقلع - واستغفر صُقِلَت، فإن عاد زِيدَ فيها حتى تعلو قلبه، فذلك الرَّان الذي ذكره الله: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: 14]. وكان الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه؛ إذا أشكلت عليه مسألة قال لأصحابه؛ ما هذا إلاّ لذنب أحدَثْتُه! وكان يستغفر، وربما قام وصلى، فتنكشف له المسألة، ويقول؛ رجوت أني تيبَ عليّ. فبلغ ذلك الفُضيْل بن عياض، فبكى بكاءً شديداً ثم قال: ذلك لقلة ذنبه، فأما غيره فلا يَنتبه لهذا. وقال المحاسبي رحمه الله تعالى: واعلم يا أخي أن الذنوب تُورِثُ الغفلة، والغفلة تورث القسوة، والقسوة تورث البُعدَ من الله، والبعد من الله يورث النار! وإنما يتفكر في هذا؛ الأحياء، وأمّا الأموات فإنهم قد أماتوا أنفسهم بحب الدنيا. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ إني لأحسبُ أنَّ الرجل ينسى العِلْمَ قد عَلِمَه بالذنب يعمله.

وقيل؛ الذنوب جراحات، ورب جُرح وقع في مقتَل!! وما ضُرب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبُعدِ عن الله. وأبعد القلوب من الله القلبُ القاسي! وإذا قسا القلبُ قَحَطَتْ العينُ، وقسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدْرَ الحاجة؛ الأكل والنوم، والكلام والمخالطة. واعلم أن الصبر على الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة، فإن الشهوة؛ إما أن توجب ألماً وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها.... وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المُضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة؛ ما لا يعلمه إلا الله. منها؛ حِرمان العلم والرزق، وحصول الوحشة بين العاصي وبين الله، وبينه وبين الخلق، وتعسير أموره، وظلمة القلب والوجه والقبر، ووهن القلب والبدن، وحرمان الطاعة، ومحق العمر، وأنها تزرع أمثالها، ويولد بعضها بعضا، وتضعف إرادة القلب وإنابته إلى الله، ويزول بها عن القلب استقباح الذنوب! وهي سبب لهوان العبد

=

Copyrighted material

=

على الله، وتُلحق ضرره غيرَه من الآدميين والحيوانات، وتورث الذل، وتفسد العقل، ويُطبع على قلب صاحبها، وتدخله تحت لعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحرمه الدخول في أدعيته صلى الله عليه وسلم وأدعية الملائكة لمن امتثل أمر الله واتّبع كتاب الله وسنّة رسوله. وهي سبب لعقوبات البرزخ المتنوعة، وتُحدِث في الأرض أنواعا من الفساد في المياه والهواء والزروع والثمار والمساكن، وتُذهب الحياء والغيرة وتعظيم الرب، وتستدعي نسيان الله للعبد (أي غضبه عليه بأن لا يرحمه) ، وهناك الهلاك! وتُخرِجُ العبد من دائرة الإحسان، وتَحرمه ثواب المحسنين، وتُزيل النعم، وتُحلّ النِّقَم، وتوجب خوف صاحبها ورُعبَه، ويصير القلب مريضاً أو ميتا بعد أن كان حيا صحيحاً، وتعمي البصيرة! ولا يزال العاصي في أسر الشيطان، وأسر النفس الأمّارة بالسوء وسجن الشهوات، وتُسقِطُ منه الجاه والمنزلة، وتسلبه أسماء المدح، وتكسبه أسماء الذمّ، وتمحقُ بركةَ العلم والعمل والرزق والعمر وكل شيء! وتَخُون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه، وتُباعد عن العبد وليّه من الملائكة، وتقرّب إليه أعداءه من الشياطين، وتؤثر في القلوب الآثار القبيحة من الرّيْن والطبْع والختْم والنفاق وسوء الأخلاق، وقبول الشكوك والشُّبَه وغيرها من الأمراض القاتلة.

ويقول ابن الجوزي؛ الحذرَ الحذرَ من المعاصي، فإنها سيئة العواقب، والحذر الحذر من الذنوب خصوصاً ذنوب الخَلَوات، فإن المبارزة لله تعالى تُسقِطُ العبد من عينه سبحانه. ولا ينال لذّة المعاصي إلا دائمُ الغفلة، فأما المؤمن اليقظان فإنه لا يلتذ بها، لأنه عند التذاذه يقف بإزائه عِلْمُه بتحريمها، وحذره من عقوبتها، فإن قَوِيَتْ معرفتُه رأى بعين عِلمه قُرْبَ الناهي - وهو الله - فيتنغص عيشُه في حال التذاذه، فإنْ غلبه سُكْرُ الهوى كان القلب مُتنغصاً بهذه المراقبات، وإن كان الطبع في شهوته فما هي إلا لحظة، ثم خِزْيٌ دائم، وندمٌ ملازم، وبكاءٌ متواصل، وأسفٌ على ما كان، مع طول الزمان حتى إنه لو تيقن العفوَ وقف بإزائه حَذَرُ العِتاب. فأُفٍّ للذنوب! ما أقبح آثارها؟ وأسوأ أخبارها؟ ولا كانت شهوة! لا تنال إلا بمقدار قوّة الغفلة!

ورحم الله السباعي إذ يقول: إذا همَّتْ نفسُك بالمعصية فذكرها بالله، فإذا لم ترجع فذكِّرها بأخلاق الرجال، فإذا لم ترجع فذكرها بالفضيحة إذا عَلِمَ بها الناس، فإذا لم ترجع فاعلم أنك تلك الساعة انقلبت إلى حيوان! .

Copyrighted material

2 - الاتباع

ولا يدخل عليك الإهمالُ إلاّ بإهمالك عن متابعة[1] النبيّ صلّى الله

---

(1) واتباعه يعني متابعته وامتثال طريقه والإقتداء بهديه أي سمته وحالته وسيرته. قال القاضي عياض رحمه الله؛ "ومخالفة أمره وتبديل سنته ضلال وبدعة متوعَّد من الله تعالى عليه بالخذلان والعذاب".

الأدلة من القرآن:

قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

وقال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾.

وقال أيضاً؛ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

وقال: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

الأدلة من السُنّة:

1 - عن عائشة رضيَ الله تعالى عنها، قالت: "صنع رسول الله ﷺ شيئاً ترخص فيه فتنزّه عنه قومٌ فبلغ ذلك النّبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه! فوالله إنّي لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية". (رواه البخاري)

2 - عن العرباض بن سارية، قال: "صلّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقيل يا رسول الله كأنها موعظة مودّع فأوصنا، قال: "عليكم بالسمع والطّاعة وإن تأمّر عليكم عبد حبشي =

Copyrighted material

=

فإنه من يعِش منكم فسيرى اختلافا كثيراً فعليكم بسنني وسنة الخلفاء الراشدين، عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة". (رواه الترمذي وقال حسن صحيح)

3 - ورويَ عنه عليه الصلاة والسلام عن حديث أبي الشيخ وأبي نُعيم والديلمي، أنه قال: [القرآن صعب مستصْعب على من كرهه وهو الحكَم فمن أستمسك بحديثي وفهمه وحفظه جاء مع القرآن ومن تهاون بالقرآن وحديثي فقد خسر الدنيا والآخرة. أُمِرتُ أمتي أن يأخذوا بقولي ويطيعوا أمري ويتّبعوا سنّتي فمن رضي بقولي فقد رضي بالقرآن]. قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ (سورة الحشر 7).

4 - "أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله وأوثق العرى كلمة التقوى وخير الملل مِلة إبراهيم عليه السلام وخير السنن سنة محمد وأشرف الحديث ذكر الله تعالى وأحسن القصص هذا القرآن وخير الأمور عوازمها وشر الأمور محدثاتها وأحسن الهدي هدي الأنبياء وأشرف الموت قتل الشهادة وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى وخير العلم ما نفع وخير الهدى ما اتُّبع وشرّ العمى عمى القلب واليد العليا خيرٌ من السفلى وما قلّ وكفى خيرٌ مما كثر وألهى وشر المعذرة حين يحضر الموت وشر الندامة يوم القيامة ومن الناس من لا يأتي الصلاة إلاّ دبراً ومنهم من لا يذكر الله إلاّ هجراً وأعظم الخطايا اللسان الكذوب وخير الغنى غنى النفس وخير الزاد التقوى ورأس الحكمة مخافة الله تعالى وخير ما وقر في القلب اليقين، والارتياب الكفر والنياحة من عمل الجاهلية، والغلول جُشاء جهنم، والكنز كيّ من النار، والشِعْر من مزامير إبليس، والخمر جماع الإثم والنساء حبالة الشيطان، والشباب شعبة من الجنون، وشر المكاسب كسب الربا، وشر المأكل مال اليتيم، والسعيد من وعظ بغيره والشقي من شقي في بطن أمه، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع، والأمر بآخره، ومِلاك العمل خواتمه، وشر الرؤيا الكذب، وكل ما هو آت قريب، وسِبابُ المؤمن فسوق وقتالُ المؤمن كفر، وأكل لحمِهِ من معصية الله تعالى، وحرمة ماله كحرمة دمه، ومن يتألّ على الله يكذبه، ومن يغفر يغفر الله له، ومن يعف يعف الله عنه، ومن يكظم الغيظ يأجره الله ومن يصبر على الرزيّة يعوّضه الله ومن يتبع السمعة يسمع الله به ومن يصبر يضعف الله له ومن يعص الله يعذبه الله. اللهم اغفر لي ولأمتي اللهم اغفر

=

Copyrighted material

عليه وسلم، ولا تُحَصَّلُ لك الرِّفعة عند الله تعالى إلا بمتابعة النبي صلّى الله عليه وسلم. والمتابعة له عليه الصلاة والسلام على قسمين؛ جَلِّية، وخَفيَّة.

فالجلية؛ كالصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد، وغير ذلك.

والخفِيّة؛ أن تعتقد الجَمْعَ[1] في صلاتك، والتدَبُّرَ في قراءتك. فإذا فعلتَ الطاعة كالصلاة والقراءة ولم تجد فيها جَمْعا ولا تدبّراً، فاعلم أنّ بك مرضاً باطناً من كِبْرٍ أو عُجُبٍ أو غير ذلك. قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: 146] فيكون مِثالُك كالمحموم الذي يجد في فمه السُّكَّر مُرَّاً. فالمعصية مع الذل والافتقار خيرٌ (وأهون) من الطاعة مع العزِّ والاستكبار. قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة وأتمّ السلام: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ﴾ [إبراهيم: 36] فمفهومُ هذا أن منْ لم يتْبَعْهُ ليس منه، وقال تعالى حكاية عن نوح عليه وعلى نبينا المصطفى أزكى

=

لي ولأمتي اللهم اغفر لي ولأمتي، استغفر الله لي ولكم". (من كتاب الشفا كما نقله الشارح ملاّ علي القاري من الجامع الصغير من رواية أبي الدرداء مرفوعاً وابن مسعود موقوفاً)

1. روى الدارمي عن ابن مسعود موصولاً، قال: "قال عليه الصلاة والسلام؛ "عملٌ قليلٌ في سنّة خير من عمل كثير في بدعة".

2. روى الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ، قال: "المتمسك بسُنتي عند فساد أمتي له أجر مائة شهيد".

3. روى الأصفهاني في ترغيبه واللالكائي في السُنة، قال رسول الله ﷺ (برواية عن أنس) ؛ "من أحيَا سُنتي فقد أحياني ومن أحياني كان معي في الجنّة".

(1) قلت؛ الجَمْع؛ رؤية الله تعالى وحده (يعني حضور القلب مع الله كأنك تراه) ، أو بعبارة أخرى؛ هو التركيز واستحضار أنك واقف بين يديه تعالى ما استطعت.

Copyrighted material

الصلاة والسلام: ﴿ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي ...﴾ [هود: 45] فأجابه سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ ﴾ [هود: 46]. فالمتابعةُ تجعل التابعَ كأنه جُزءٌ من المتبوع وإن كان أجنبيا، كسلمان الفارسيّ رضي الله عنه؛ لقوله صلّى الله عليه وسلم؛ "سلمان منّا أهل البيت" (الطبراني في الكبير والحاكم وضعف الذهبي سنده) ومعلوم أن سلمان من أهل فارس، ولكن بالمتابعة قال عنه صلّى الله عليه وسلم تعليما، فكما أن المتابعة تُثْبِتُ الاتصال، كذلك عَدَمُها يُثْبِتُ الانفصال.

مفتاح المتابعة

وقد جمع اللهُ الخيرَ كلَّه في بيت وجعل مفتاحه مُتابعةَ النبي صلى الله عليه وسلم، فتابِعْهُ بالقناعة[1] بما رزقك الله تعالى، والزهدِ[2]

---

(1) القناعة؛ الاكتفاء بالقِسْمة، وعدم التشوُّف للزيادة، والاستغناءُ بالموجود، وترك التشوف إلى المفقود، وهي الحياة الطيبة، والرزق الحسن في قوله تعالى: ﴿ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًا ﴾ [الحج: 58]، أي؛ والذين هاجروا في سبيل الله ثمّ قتل بعضهم أو مات ليرزقن الله من بقي منهم رزقاً حسناً، وهي مِنْ ثمرة الغنى بالله، قال وهْب بن منبّه: إن العز والغنى خرجا يجولان، فلقيا القناعة فاستقرا فيها.
ومرجعُها إلى سدِّ باب الطمع، وفتح باب الورع، وهي مطلوبة في أمور الدنيا فقط، وأما في امور الآخرة أو في زيادة العلم والرقّي في المعرفة فمذمومة، ولذلك قيل؛ القناعة من الله حِرمان. (معراج) .

(2) الزهد: خلوُّ القلب من التعلُّق بغير الربّ، أو برودة الدنيا من القلب وعزوف النفس عنها.
فزهد العامة ترك ما فَضَل عن الحاجة في كلِّ شيء، وزهد الخاصة تركُ ما يُشغل عن التقرّبِ إلى الله في كل حال، وزهدُ خاصة الخاصة ترْكُ النظر إلى ما سوى الله في جميع الأوقات. (معراج)
قد وضع الإسلام تحديداً للزهد في ما رواه الترمذي وابن ماجة من حديث أبي ذرّ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال =

Copyrighted material

=

ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك وإن تكون في ثواب المصيبة - إذا أصبْتَ بها - أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك.

وسُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حدِّ الكفاية للفرد فقال: ما سدَّ جوعتك ووارى عورتك وإن كان لك بيتٌ يُظلك فذاك وإن كان لك دابة فبخٍ بخٍ. [رواه أحمد].

روى الطبراني؛ عن ثوبان قال: قلت يا رسول الله ما يكفيني من الدنيا؟ قال: "ما سدّ جوعتك ووارى عورتك، وإن كان لك بيت يظلك فذاك وإن كان لك دابة فبخ".

وصح عن رسول الله قوله؛ "أحسنوا لباسكم وأصلحوا رواحلكم حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس". ولقد فقه هذا علماء الأمة وساروا عليه، فعن أبي يعفور قال: سمعت ابن عمر يقول؛ وقد سأله رجل عما يلبس من الثياب - قال: "ما لا يزْدَريك فيه السُّفهاء وما لا يعيبك فيه الحكماء" [رواه الطبراني].

وروى الحاكم وصححه: "ليس لابن آدم حقٌ في سوى هذه الخصال؛ بيت يُكِنُّه وثوب يواري عورته وجِلْفِ الخبز والماء". جلْفِ الخبز؛ الخبز الغليظ ليس معه إدام.

روى ابن أبي الدنيا؛ قال رجل؛ يا رسول الله من أزهد الناس؟ قال: من لم ينس القبر والبلى، وترك فضْلَ زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى ولم يعُدَّ غداً من أيامه وعدَّ نفسه من المَوْتى.

وروى أبو يعلى: "ما تزيَّن الأبرار بمثل الزهد في الدنيا". وروى الطبراني؛ "صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، وهلاك آخرها بالبخل والأمل". وعنه أيضا: " وربَّ مُتَخوِّض فيما اشتهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار". وروى الطبراني أيضا: "من قضى نهمته من الدنيا حيل بينه وبين شهوته في الآخرة، ومن مدّ عينيه إلى زينة المُتْرَفين في الدنيا كان مهينا في ملكوت السماوات، ومن صبر على القوت الشديد صبرا جميلا أسكنه الله في الفردوس حيث شاء".

وروى البيهقي: "هل من أحدٍ يمشي على الماء إلا ابتلّت قدماه؟ قالوا لا يا رسول الله، قال: كذلك صاحب الدنيا لا يسلم من الذنوب".

وكان الحسن البصري يلبس ثوباً بأربعمائة، وفرْقَد السَّبْخي يلبس المُسُح فلقي

=

Copyrighted material

=

الحسن فقال: ما ألين ثوبك؟ قال: يا فرقد، ليس لين ثيابي يبعدني عن الله ولا خشونة ثوبك تقربك من الله.
وقد أنكر أحد المتزمتين على أبي الحسن الشاذلي جمال هيئته وكان هذا الرجل ذا رثاثة، فقال له أبو الحسن؛ يا هذا، هيئتي هذه تقول؛ الحمد لله، وهيئتكم تقول؛ أعطوني من دنياكم.
ولا يدخل هذا الاستمتاع في الدنيا التي ذمها الإسلام في قوله صلى الله عليه وسلم في ما رواه البيهقي؛ "حب الدنيا رأس كل خطيئة" فإن المراد بالدنيا التي هي رأس كل خطيئة هي حب الشرف والرئاسة وحب المال رغبة في التفاخر والتكاثر والترؤس والعلو على الناس دون كفاية أو إرادة نصرة الحق أو التجمل بين الناس.
يقول الله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص: 83].
وعن كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد من حرص المرء على المال والشرف لدينه. [رواه الترمذي].
فالزهد بهذا المعنى الذي أوضحناه يريح القلب والبدن ويكسب محبة الله ويجلب مودة الناس. عن سهل بن سعد قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله دلّني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس. قال الرسول؛ ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس. [رواه ابن ماجه].
قال ابن المبارك رحمه الله تعالى: أفضل الزهد إخفاء الزهد، وينبغي أن يُعوّل في هذا على ثلاث علامات؛ الأولى؛ أن لا يفرح بموجود، ولا يحزن على مفقود، كما قال تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحديد: 23]. وهذه علامة الزهد في المال.
الثاني؛ أن يستوي عند ذامّه ومادحه، وهذه علامة الزهد في الجاه.
الثالث؛ أن يكون أنسه بالله، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة.
فأما محبة الدنيا ومحبة الله تعالى، فهما في القلب كالماء والهواء في القدح، إذا دخل الماء خرج الهواء فلا يجتمعان.

=

Copyrighted material

والتقلُّلِ من الدنيا، وترْكِ ما لا يَعني من قول وفعل، فَمَنْ فُتِحَ له بابُ المتابعة فذلك دليلٌ على محبة الله له. قال تعالى؛ ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران: 31].

موانع الاتباع

أ - الظلم

فإذا طلبْتَ الخيرَ كلَّه فقل؛ اللهم إني أسألك المتابعةَ لرسولك صلى الله عليه وسلم في الأقوال والأفعال. ومَنْ أراد ذلك فعليه بعدم الظّلم(1) لعباد الله في أعراضهم وأنسابهم؛ فلو سَلِموا من ظلم بعضهم بعضاً لانطلقوا على الله، ولكنهم مَعُوقون كالمِديان (المُثقَل بالديون) المعوق بسبب من يطلبه.

واعلم أنك لو كنتَ مُخَصَّصاً عندَ المَلِك، مُقَرَّباً منه، وجاء مَن

=

وقال إبراهيم بن أدهم: " الزهد ثلاثة أقسام؛ فزهدٌ فرْضٌ، وزهد فضْلٌ، وزهد سلامة، فأما الزهد الفرض؛ فالزهد في الحرام، وأما الزهد الفضل فالزهد في الحلال، وأما الزهد السلامة فالزهد في الشبهات.

(1) روى مسلم: " اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة". وروى الطبراني؛ لا تظلموا فتدعوا فلا يُستجاب لكم وتستسقوا فلا تسقوا، وتستنصروا فلا تنصروا".
روى الإمام أحمد بإسناد جيد: " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ويقول؛ والذي نفسي بيده ما تواد اثنان فتخاصما وافترقا إلا بذنب أحدثه أحدهما".
روى الطبراني: " يقول الله تعالى: اشتدّ غضبي على من ظلم مَنْ لا يجد ناصرا غيري".
وروى أبو داود: " ما من مسلم يخذل امرءاً مسلماً في موضع تُنْتَهَكُ فيه حُرْمَتُه ويُنْتَقَصُ فيه من عِرضه إلا خذله الله تعالى في موضعٍ يحب فيه نصرته".

Copyrighted material

يَطلُبك بِدَيْنٍ، ضَيَّقَ عليك ولو كان نزراً يسيراً، فكيف بك إذا جئتَ يوم القيامة، ومائة ألفِ إنسان أو أكثر يطلبونك بِديون مختلفة من أخذ مال، وقذف عِرْض، وغير ذلك، فكيف يكون حالُك[1] ؟!

ب - الذنوب والمعاصي

المصابُ حقا مَنْ مَحَقَتْه الذنوب[2] والشهوات حتى جعلته كالشَّنِّ البالي، هذا هو المنكوب المُعَزّى؛ ذهبتْ مآكلُه وشهواتُه، ملأ بها المِرْحاض، وأرضى بها زوجته، ويا ليتها كانت من حلال[3] !

---

(1) وقد صح أن الرجل يأتي يوم القيامة بحسنات كالجبال ولكنه قد شتم هذا وأخذ مال هذا وظلم هذا، فيأخذون من حسناته، حتى إذا فنيت طرحوا عليه من سيئاتهم فطرحوه في النار... وهذا هو المفلس كما عرّفه عليه الصلاة والسلام.

(2) الذنوب هي كل ما خالفت فيه الشرع إما بالترك أو الفعل. وهي عند القوم كل ما حجبك عن الله تعالى.

(3) يقول صلى الله عليه وسلم: " الحلال بين والحرام بيّن وبين ذلك أمورٌ مُشتبِهات، لا يدري كثير من الناس أمِنَ الحلال هي أم من الحرام، فمن تركها استبراءً لدينه وعِرْضه فقد سَلِم، ومن واقع شيئاً منها يُوشك أن يُواقِع الحرام، كما أنه من يرعى حول الحمى يُوشك أن يُواقعه. ألا وإنّ لكل مَلِكٍ حمى، ألا وإن حمى الله محارمه"أي معاصيه (الترمذي) . وكان الشيخ أبو القاسم بن منصور القَبَّاري الإسكندراني شيخ العلاّمة ابن المُنيّر يقول؛ المُباح؛ عَقَبَةٌ بين العبد وبين المكروه، فمن استكثر من المكروه تطرَّق إلى الحرام! قال الحافظ ابن حجر بعد نقله في الفتح: " وهو منزعٌ حَسَن، ويؤيده رواية ابن حبان من طريق ذَكَر مسلمٌ إسنادها ولم يسق لفظها، فيها من الزيادة: " اجعلوا بينكم وبين الحرام سُتْرةً من الحلال، من فعل ذلك استبرأ لعِرضه ودينه، ومن أرْتَعَ فيه كان كالمُرْتِع إلى جَنْبِ الحِمى يوشك أن يقع فيه". ثم قال الحافظ ابن حجر: " ومعنى الحديث؛ أنَّ الحلال حيث يُخشى أن يؤول فعلُه مطلقاً إلى مكروه أو محرَّم ينبغي اجتنابه، كالإكثار مثلاً من الطيبات فإنه يُحْوِجُ إلى كثرة الاكتساب المُوقِع في أخذ ما لا يستحق، أو يُفضي إلى بطَرِ النفس، وأقلّ ما فيه الاشتغال عن مواقف العبودية، وهذا معلوم بالعادة مشاهد بالعيان. ويختلف ذلك باختلاف الناس؛ فالعالم =

Copyrighted material

فالأول من المقامات[1]؛ التوبة، ولا يُقبل ما بعدها إلاّ بها.

ومثال العبد إذا أذنب أو فعل معصية كالقدر الجديد، يوقَد تحتها النار ساعة فتسْود، فإن بادرت إلى غسلها انغسلت من ذلك السواد، وإن تركتها وطبخت فيها مرة بعد مرة ثبّتّ السواد فيها حتى تتكسر، ولا يُفيد غسلها شيئا. فالتوبة هي التي تغسل سوادَ القلب فتبْرُزُ الأعمالُ وعليها رائحة القبول، فاطلب من الله تعالى التوبةَ دائما فإن ظَفِرْتَ بها فقد طاب وقتُك؛ لأنها موهبة من الله يضعها حيث شاء من عباده، وقد يَظْفَرُ بها العبد المُشَقّقُ الأكعاب دون سيّده، وقد تظفر بها المرأة دون زوجها، والشاب دون الشيخ، فإن ظفرت بها فقد أحبك الله؛ لقوله تعالى؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: 222].

=

الفطن، لا يخفى عليه تمييز الحُكم، فلا يقع له ذلك إلا في الاستكثار من المباح أو المكروه كما تقرر قبل. ومنْ دونه؛ تقع له الشُّبْهة في جميع ما ذُكر بحسب اختلاف الأحوال. ولا يخفى أن المُستكْثِر من المكروه تصير فيه جُرأة على ارتكاب المنهي عنه في الجملة، أو يحمله اعتيادُهُ ارتكاب المنهيّ عنه غير المحرَّم على ارتكاب المنهيّ عنه المحرَّم إذا كان من جنسه، أو يكونُ ذلك لِشُبْهةٍ وهو أن من تعاطى ما يُنهى عنه يصيرُ مُظلِمَ القلب لفقدان نور الورع! فيقع في الحرام ولو لم يختر الوقوع فيه!" وقال العلامة القسطلاني: " بالله عليك ما لم تعلم حِلَّه يقيناً؛ اتركه، كتركه صلى الله عليه وسلم تمرةً خشية أن تكون من تمر الصدقة، وأعلى الورع تَرْك الحلال مخافة الحرام، كترْك إبراهيم بن أدهم أُجْرَتَهُ لِشَكِّه في وفاء عمله، وطوى عن جوعٍ شديد. [حاشية رسالة المسترشدين لأبي غدّة رحمه الله تعالى].

(1) إذا مات لك عزيز انتابتك حالة حزن من غير كسبٍ منك ولا استجلاب، ولكن إن استمرت هذه الحالة واستقرّت ودامت وأقامت فيك، وصارت طبعاً فيك؛ فهذا يُسمّى "مَقام". فمقامات اليقين اثنا عشر على الترتيب؛ التوبة والخوف والرجاء، والورع والزهد، والصَّبْرُ والشكر والتوكل، والرِّضا والتسليم، والمراقبة والمحبة.

Copyrighted material

إنما يغتبط (يفرح) بالشيء من يعرف قدْره، ولو بدرْتَ الياقوت بين الدواب لكان الشعير أحب إليهم، فانظر؛ من أيّ الفريقين أنت؟ فإن تُبْت فأنت من المحبوبين، وإن لم تتب فأنت من الظالمين، قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: 11].

ومن تاب ظفِر[1] ومن لم يتب خسِر، ولا تقطع يأسك وتقول؛ كم أتوب وأنقُضُ (أي التوبة) ، فالمريض يرجو الحياة ما دامت فيه الروح[2] .

---

(1) أولا يظفر بعفو الله وقد جاء في آية أن الله يبدل سيئاته حسنات قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ﴾ [الفرقان: 70]، والشرط فيها التوبة النصوح (وقد تكلمنا عنها) وإتباعها بالعمل الصالح.

(2) جاء في الحديث القدسي عند البخاري: " أذْنبَ عبدٌ ذنباً، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال الله تبارك وتعالى: أذْنبَ عبدي ذنباً فعَلِمَ أنَّ له ربّاً يغْفِرُ الذنبَ ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال الله تبارك وتعالى: أذْنبَ عبدي ذنباً فعَلِمَ أنَّ له ربّاً يغْفِرُ الذنبَ ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال الله تبارك وتعالى: أذْنبَ عبدي ذنباً فعَلِمَ أنَّ له ربّاً يغْفِرُ الذنبَ ويأخذ بالذنب قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء". (يعني طالما أنه يُذنب ويستغفر فسيغفر اللهُ له) .

يقول ابن عطاء في حكمه؛ لا يَعْظُمُ الذنبُ عندك عَظَمةً تَصُدَّكَ عن حُسْن الظنّ بالله تعالى، فإن من عرف ربَّه استصغر في جنْب كرمه ذنبه.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: " فإن قلت إنما يمنعني من التوبة أني أعلم من نفسي أني أعود إلى الذنب ولا أثْبُتُ على التوبة فلا فائدة من ذلك! فاعلم أن هذا من غرور الشيطان ومن أين لك هذا العِلم فعسى أن تموت تائباً قبل أن تعود إلى الذنب.

وأما الخوف من العَوْد فعليك العزمُ والصدقُ في ذلك وعليه (تعالى) الاتمام، فإن أتمَّ فذاك المقصودُ من فضله وإن لم يُتمَّ فقد غُفِرَتْ ذنوبُك السالفة كلُّها وتخلَّصْتَ منها وتطهَّرْتَ وليس عليك إلا هذا الذنب الذي أحدثتَه الآن وهذا هو الربح العظيم والفائدة العظيمة الكبيرة فلا يمنعك خوف العود عن التوبة من =

Copyrighted material

وإذا تاب العبد فرحتْ به دارُه من الجنة، وتفرح به السماءُ والأرض، والرسولُ صلّى الله عليه وسلّم، فالحق سبحانه لم يرضَ أن تكون مُحباً بل محبوباً، وأين المحبوب من المحب[1] ؟!

=

التوبة فإنك أبدا بين إحدى الحسنيين والله ولي التوفيق والهداية فهذه هذه".

(1) المحبة؛ ميلٌ دائم بقلبٍ هائم.

ويظهر هذا الميل؛ أولاً؛ على الجوارح الظاهرة بالخدمة (بفعل المأموارت واجتناب المنهيات) ، وهو مقام الأبرار، وثانيا؛ على القلوب الشائقة بالتصفية والتحلية، وهو مقام المُريدين السالكين، وثالثا على الأرواح والأسرار الصافية بالتمكين من شهود المحبوب، وهو مقام العارفين.

فبداية المحبة ظهور أثرها في الخدمة، ووسطها ظهور أثرها بالسُّكر والهيام، ونهايتها ظهوره بالسكون والصحو في مقام العِرْفان، فلهذا انقسم الناسُ على ثلاث مراتب؛ أرباب الخدمة، وأرباب الأحوال، وأرباب المقامات، فبدايتها سلوك وخدمة ووسطها جَذْبٌ وفناء، ونهايتها صحوٌ وبقاء. (معراج التشَوُّف لابن عجيبة)

السُّكر؛ هو الغيبة عن حسِّ المخلوقات (وهو الفناء) .

الصحو؛ وهو يسمى بالبقاء لإبقاء الأشياء بالله بعد فنائها بنور البصيرة في الله تعالى.

وحب الله تعالى فرض على كل مسلم، بل ويجب على المسلم ألا يسيطر عليه شيء من محبوبات الدنيا، فيتقدم حبه على حب الله تعالى، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة24].

وأكد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بقوله: "لا يؤمن أحدُكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما". (متفق عليه) .

قال ابن مسعود رضي الله عنه؛ لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فمن كان يحب القرآن فهو يحب الله، ومن علامات المحبة الأنس بالخلوة في الفلوات، والليالي المظلمات، انقطاعا إلى الله تعالى عن الخلق، فمن استأنس
=

Copyrighted material

=

بالناس فهو من أهل الإفلاس.
قال الحسن البصري؛ دخلت على الفُضَيْل بن عياض رحمهما الله تعالى وهو يبكي فقلت؛ ما يبكيك يا أبا علي؟ قال ويحك يا حسن إنه إذا جنّ الليل، وهدأت العيون، واختلط الظلام، افترش أهل المحبة لله أقدامهم، وقد أشرف الجليل سبحانه وتعالى عليهم فنادى، بعيني من تلذذ بكلامي، واستراح إليّ، فإني مطلع عليهم في خلواتهم، أسمع بكاءهم، وأرى أنينهم، فَلِمَ يا جبريل لا تنادي فيهم؛ ما هذا البكاء الذي أسمعه منكم؟ هل أخبركم أحدٌ أن حبيباً يعذب أحباءه؟ وهل يجمل بي أن أعذب أقواماً وعند البيات أحدُهم يطلب مرضاتي. فَبِي حلفْت إنهم إذا وردوا عليّ يوم القيامة، جعلت هديتي لهم أن أكشف لهم عن وجهي حتى ينظروا إليّ وأنظر إليهم (قال ذلك في حالة الغلبة) .
ومن علامات محبة الله تعالى اتباع نبيّه صلى الله عليه وسلم (وقد تكلمنا عنها سابقا) .
وللمحبين صفات كثيرة، ذكرها الله عز وجل في العديد من آياته منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ.. ﴾ [المائدة 54].
ولنعلم أن محبة الله تعالى للعبد هي؛ إكرامه وتوفيقه لطاعته، وصونه عن معصيته وهدايته لطريقه، وتهيئة أسباب القرب له، وثناؤه عليه، ورضاه عنه.
ومن علامات محبة الله تعالى للعبد:
- وضع القبول له في الأرض؛ روى البخاري: " إذا أحب الله العبد، نادى جبريل؛ إن الله يحب فلانا فأحبّه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانا، فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض".
- البلاء؛ ففي الحديث الحسن: " إذا أحب الله قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرِّضا ومن سخط فله السخط".
ومحبة العبد لله تعالى: أن يسارع العبد إلى طاعته، وابتغاء مرضاته، وأن يجتنب ما يوجب سخطه وعقوبته، وأن يتحبب إليه بما يوجب الزلفى لديه، والأمور التي يحبها الله تعالى كثيرة ذُكِرت في القرآن الكريم، فعلى الأخ القارئ الكريم إحصاؤها.

=

Copyrighted material

=

فما هي الأسباب التي تقوي حبّ الله تعالى؟

جاء في مختصر منهاج العابدين لابن قدامة المقدسي: " وأصل الحب لا ينفك عن المؤمن، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة، وأما قوة الحب واستيلاؤه، فذلك ينفك عنه الأكثرون، وإنما يحصل ذلك بشيئين:

أحدهما: قطع علائق الدنيا، وإخراج حب غير الله من القلب، فأحد أسباب ضعف حبه، قوة حب الدنيا، وبقدر ما يأنس القلب بالدنيا ينقص أنسه بالله، والدنيا والآخرة ضرتان، وسبيل قطع الدنيا عن القلب سلوك الزهد (وقد فصلنا فيه) ، وملازمة الصبر، والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء.

والسبب الثاني لقوة المحبة؛ معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة تبعتها المحبة، ولا يوصِل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا الفكر الصافي، والذكر الدائم، والتشمير في الطلب، والاستدلال عليها بأفعاله سبحانه، ومن آثار أفعاله الأرض وما عليها، بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات إلى غير ذلك.

وأهم سؤال يُطرح هو؛ كيف يصل المسلم الذي يزكي نفسه إلى هذه المحبة؟ وكيف يسير في هذا الطريق؟

الجواب كما قال أهل المعرفة: "الأسباب الجالبة للمحبة، والموجِبة لها عشرة أمور: أحدها؛ قراءة القرآن بتدبّر والتفهم لمعانيه وما أُريد به.

الثاني؛ الإكثار من النوافل بعد الفرائض.

الثالث؛ دوام الذكر على كل حال؛ باللسان والقلب والعمل والحال.

الرابع؛ أن تؤثر ما يحبه الله على ما تحبه أنت.

الخامس؛ مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها، أي أن يشهد بقلبه ما يحصل من تنعم هو برحمة الله وما يحصل من شفاء ورفع للبلاء هو بلطف الله ورأفته، وما يحصل من بلاء وانتقام هو بقهر الله وكل ما يجري هو بعلم الله وقدرته ومشيئته... الخ. فكل صفة لله لها أثر يدل عليها كما أن جملة العلم يدل على وجود الله تعالى...

السادس؛ مشاهدة برِّه وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة، فإنها داعيةٌ إلى محبته.

السابع؛ وهو أعجبها؛ انكسار القلب بكليته بين يدي الرب تعالى.

=

Copyrighted material

[أُفٍّ لعبدٍ يعلم إحسانَ المُحْسِنِ فَيَجْتَرِئُ على معصيته، ولكن ما عَرَفَ إحسانَه مَنْ آثَرَ عِصْيانَه، وما عرفَ قَدْرَه مَنْ لم يُراقِبْه، وما ربح من اشتغل بغيره وعلم أنَّ النَّفسَ تدعوه إلى الهَلَكة فَتَبِعَها، وعلِم أنّ القلبَ يدعوه إلى الرُّشد فعصاه، وعلم قَدْرَ المعصيِّ فواجَهَهُ بالمعصية - ولو علم اتِّصافه بعَظَمَتِه لمَا قابلَه بوجود معصيته - وعلم قُرْب مولاه وأنه يراه فسارعَ لِما عنه نَهاه، وعلم أَثَرَ الذنب المُرَتَّب عليه دنيا وأخرى، وغيباً وشهادة، فما استحيى من ربه، ولو علم أنّه في قَبْضَتِه لَما قابله بِمُخالَفَتِه](1) .

=

الثامن؛ الخلوة به وقت تنزل الرحمات الإلهية (في الثلث الأخير من الليل) لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع؛ مجالسة الصادقين والصالحين.

العاشر؛ مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة؛ وصل المُحِبُّون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب وملاك ذلك كله أمران؛ استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة وبالله التوفيق.

(1) والنقطة المركزية في هذه الفقرة والتي يركز عليها المؤلف ويستغرب صدور ما يصدر مع وجودها هي اليقين.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله: "واعلم أن اليقين عند جماعة هو توالي العلم بالمعلوم حتى لا يكاد صاحبُه يغفل عنه فهو أخص من العلم - مع أن الشيخ ابن عطاء استعمل كلمة علم وأراد منها اليقين - وعند آخرين اليقين هو العلم الذي لا يتداخل صاحبه ريب على مطلق العرف ولا يطلق في وصف الحق سبحانه لعدم ورود النص بذلك. والعبارات التي تطلق على العلوم الجلية ثلاثة؛ علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين. فعلم اليقين بموجب اصطلاحهم ما يُتحصَّل بالبراهين والأدلة، وعين اليقين ما يكون بالكشف والنوال فهو كالمشاهدة والرؤية بالعين المجردة، وحق اليقين ما يكون بالوصف. ولنضرب مثلا على ذلك؛ فعلم اليقين هو معرفتك بوجود مكة، وحق اليقين هو رؤيتها على الخريطة

=

Copyrighted material

آثار المعاصي

واعلم أن المعصية تتضمّن؛ نَقْضَ العهد[1]، وتحليل عقدِ الودّ[2]،

=

أو الاستماع إلى من يصفها لك. وعين اليقين هو أن تزورها وتتمشى في شوارعها.
فالأول (علم اليقين) لأرباب العقول والثاني (عين اليقين) لأصحاب العلوم، والثالث (حق اليقين) لأصحاب المعارف والمكاشفات. وإيضاحه أيضا؛ علم اليقين يُشهدك قربه تعالى منك، وعين اليقين يشهدك عدمك لوجوده تعالى، وحق اليقين يشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك، وبيّنه قوله؛ إن الذي ينكشف بالنور الأول قرب الله منك، وثمرة ذلك مراقبته تعالى والاستحياء منه حتى لا يراك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك، والذي ينكشف بالثاني عدمية كل موجود في وجود الحق تعالى فيشهد الأكوان عَدَماً فلا يعبأ بها ولا يلتفت إليها إذ وجودها عارية والوجود الحقيقي له سبحانه وتعالى وثمرة ذلك أن لا يبقى في نظرك ما تستند إليه ولا ما تستأنس به فيتم لك التوكل والتفويض والرِّضا والاستسلام، والذي ينكشف بالثالث الذات المقدس، وثمرة ذلك الفناء الكامل الذي هو دهليز البقاء فيفنى عن فنائه وعَدَمه استهلاكا في وجود سيّده، وناهيك بما يحصل له حينئذ من المواهب والأسرار الإلهية فإذا ترقى عن ذلك حلَّ في مقام البقاء".

(1) العهد علينا من الله تعالى أن نخضع له تعالى في كل شئون حياتنا وفي كل صغيرة وكبيرة وأن نعبده ولا نطيع الشيطان؛ قال تعالى في سورة يس: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝ ﴾ [يس: 60 - 61].
وجاء في الحديث الصحيح عن معاذ رضي الله عنه أن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحقهم عليه تعالى أن لا يعذبهم في النار، وحقهم عليه لأنه وعدهم بذلك والله لا يخلف وعده وإلا فالنجاة من النار ودخول الجنة بفضل الله ورحمته ومنته، واقتسام درجاتها يكون بالعمل.

(2) الود هو الحب، وتحليله هو إذهابه بالكلية أو إنقاص درجته، فمن أصرّ على المعاصي ولم يتب منها خيف عليه من ذهاب حب الله تعالى له، فقد قال تعالى:
=

Copyrighted material

والإيثار على المولى[1] ، والطاعة للهوى[2] ، وخلع جِلباب الحياء[3] ، والمبارزة لله بما لا يرضى[4] ، مع ما في ذلك من الآثار الظاهرة من؛

=

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ [مريم: 96].

(1) لا ننسى أننا ما زلنا نعدد آثار المعصية؛ ومنها الإيثار على المولى؛ فلو اجتمعت للعاصي حلقة دينية فيها خير لآخرته وبنفس الوقت دعاه أصحابه لسهرة كلها معاصي ولكنها تريح النفس وتبسطها لآثر الثانية، ولو جاءته صفقة مادية مربحة في وقت الصلاة في المسجد لآثر الصفقة، ولو جاء موعد الماتش الفلاني أو المسلسل العلاني في وقت التراويح لظل في البيت، وهذا كله من إيثار الهوى على طاعة الله تعالى وترددات المعاصي.

(2) يقول ابن الجوزي رحمه الله تعالى: " تأملت وقوع المعاصي من العُصاة فوجدتهم لا يقصدون العصيان، وإنما يقصدون موافقة هواهم، فتبعَ العصيانُ تبعاً. فنظرت في سبب ذلك الإقدام مع العلم بوقوع المخالفة، فإذا به ملاحظتهم لكرم الخالق، وفضله الزاخر، ولو أنهم تأملوا عظمته ما انبسطت كَفٌّ بمخالفته. فليعرض المُقْدِمُ على الذنوب على نفسه الحذر من هذه صفته فقد قال تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ ﴾ [آل عمران:28].

يقول صلى الله عليه وسلم؛ لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به.

(3) فكيف لا يكون قليل حياء من عرف أن الله ناظر إليه قادر عليه ومع ذلك يرتكب المعاصي، أنا لا أتكلم عن من ضعفت به نفسه وزلت قدمه ثم قام من كبوته، فهذا مطبوع في ابن آدم، ولكن أتكلم عن المصرّين المخططين للمعاصي، فهؤلاء فعلا قد خلعوا جلباب الحياء، لأن الحياء خير كله وهو لا يأتي إلا بخير وهو شعبة من شعب الإيمان كما جاء في البخاري.

(4) يقول ابن عباس رضي الله عنهما؛ يا صاحبَ الذنب! لمَّا تَأْمَنُ سوءَ عاقبتِهِ ولِما يَتْبَعُ الذنبَ أعْظم من الذنب، وقِلَّةُ حيائِك من مَلَكِ اليمين والشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب الذي عملته، وفرحُك بالذنب إذا ظَفِرْتَ به أعظم من الذنب، وضحكُكَ وأنت لا تدري ما اللهُ صانعٌ بك أعظم من الذنب، وحزنُك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب، وخوفُك من الرّيحِ إذا حَرَّكَتْ سَتْرَ بابك، وأنتَ على الذنب ولا يضطربُ فؤادُك من نظرِ الله إليك أعظم من الذنب".

Copyrighted material

ظهورِ الكُدورة في الأعضاء[1] ، والجمود في العين[2] ، والكسلِ في الخدمة[3] ، وتركُ الحِفظ للحُرمة[4] ، وظهورِ كسْبِ الشهوات، وذهابِ بهجةِ الطاعات[5] .

---

(1) أي ذهاب بهاء النور منها إذ للطاعات نور يظهر في الوجوه واليدين، وذلك يظهر للذين ينظرون بنور الله الموهوب لهم من الطاعات.
دخل رجل على سيدنا عثمان رضي الله عنه فقال له (أمير المؤمنين) ؛ أيدْخلُ أحدُكم وفي عينيه آثار الزنا! فقال الرجل؛ أَوَحْيٌ بعد رسول الله يا أمير المؤمنين؟ قال: بل فراسة المؤمن، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله" ثم قرأ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ الحجر: 75].

(2) ذلك أن المعصية - كما سيقول ابن عطاء - تقسي القلب، والقلب هو مكان نبع الدمع وإرسالها للعين فإن كان قاسيا فلا تستطيع الخروج، فيُحرم العبد من البشارة التي جاءت في الحديث؛ عينان لا تمسهما النار؛ عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله (الترمذي) .

(3) وهذا نتيجة مادية ملموسة لمن مر بكل ما أسلفنا قوله من بدء نقض العهد، فالقلب مشغول والنفس مسيطرة وداعي الخير في القلب يكاد يختنق ودواعي النفس وملذاتها شديدة عنيفة، فأنى لجسد مثقل بالجراح أن يقوم بهمة ونشاط للصلاة للخيرات للصدقات لصلاة الفجر وليس لقيام الليل، فصارت حاله تشبه حال المنافقين في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾ [النساء: 142].

(4) الحرمة؛ ما لا يحل انتهاكه. وهي كل ما حرّمه الله تعالى من فعل أو ترك. فمن داخل بيت أخ له فلا يجوز أن ينتهك حُرمته؛ كأن ينظر إلى نسائه أو أن يسرق منه شيئا أو يحتال على ابنه، فهذا ذنبه أكبر من الذي اقتحم البيت وفعل كلَّ ذلك؛ لأن أخاك قد ائتمنك على ما في داره. وأنت تسكن في أرض الله وتأكل من رزق الله وقد ائتمنك على محارمه ثم تخون؟ فمن اعتاد على المعاصي هان نظر الله إليه وهان هو في نظر الله تعالى.

(5) يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى: "فإن شؤم الذنوب يورِث الحِرمان ويُعْقِبُ الخذلان وأن قَيْدَ الذنوب يمنع عن المشي إلى طاعة الله عز وجل والمسارعة إلى خدمته؛لأن ثقل الذنوب يمنع من الخِفّة للخيرات والنشاط إلى الطاعات، وأن الإصرار على الذنوب مما يسود القلب فتجدُها في ظلمة وقساوة =

Copyrighted material

أمـــا الآثـــار الباطـــنة؛ فالقـــساوة فـــي القلـــب[1]، ومعانـــدة

=

لا خلوص فيها ولا صفاوة ولا لذّة ولا حلاوة، وإن لم يرحم الله فستجرُّ صاحبها إلى الكفر والشقاوة، فيا عجباً كيف يُوَفّقُ للطاعة من هو في شؤم وقسوة، وكيف يُدعى إلى الخدمة من هو مُصِرٌّ على المعصية ومُقيمٌ على الجَفْوة، وكيف يُقَرَّب للمناجاة من هو مُتَلَطِّخٌ بالأقذار والنجاسات، ففي الخبر عن الصادق المصدوق رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا كذب العبد تنحّى عنه المَلَكان من نتن ما يخرج من فيه" (أبو نعيم) فكيف يصلح هذا اللسان لذكر الله عز وجل (وبالأحرى كيف سيجد حلاوة هذه الطاعة) فلا جرمَ لا يكاد يجد المُصرُّ على العصيان توفيقا ولا تخِفُّ أركانه لعبادة الله تعالى، فإن اتفق فبِكَدٍّ لا حلاوة معه ولا صفوة، وكل ذلك لشؤم الذنوب وترك التوبة، ولقد صدق الفضيل حين قال: إذا لم تقوَ على قيام الليل وصيام النهار فاعلمْ أنك مكبولٌ قد كبلتك خطيئتك".

(1) فالقلب اللين هو بخلقته شفّاف يسمح للنور الإلهي بدخوله، ولكن الذنوب والمعاصي تعمل به كمن يطلي قلبه بمادة حاجبة للضوء وبنفس الوقت تكسبه صلابة، فكلما كثرت المعاصي ازداد الطلاء سماكة وحجبا وكذلك القلب صلابة، فتبدو عليه المظاهر الآتية؛
1. البعد عن صحبة الصالحين..
2. الابتعاد عن القدوة الصالحة.
3. عدم المداومة على طلب العلم .
4. الاستهانة بالذنوب.
5. الانشغال بالزوجة والمال والولد..
6. التوسع في المباحات.
7. طول الأمل .
8. الانهماك بالدنيا .
هذه المظاهر ذكرتها باختصار والتوسع فيها له كتاب آخر عنوانه: "قسوة القلب الأسباب المظاهر والعلاج".
أما العلاج وباختصار شديد فيكون؛
1.الانزعاج من حالة القسوة.
2.التفكير في النفس والذات.
3.التفكر في المآل.

=

Copyrighted material

=

4.الابتعاد عن المعاصي والآثام.
5.التزام ورد يومي، مع قراءة القرآن المطلوبة.
6.مجالسة الصالحين.
7.كثرة ذكر الموت.
8.الدعاء والابتهال والتضرع لله عز وجل.

- شكا رجل إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال: امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين.. (أحمد)
- وقد روي أن رجلاً سأل السيدة عائشة رضي الله عنها وعن أبيها؛ ما دواء قسوة القلب فأمرته بعيادة المرضى وتشييع الجنائز وتوقع الموت.
- وشكا رجل إلى مالك بن دينار رحمه الله قسوة قلبه فقال له؛ أدمن الصيام، فإن وجدت قسوة فأطل القيام، فإن وجدت قسوة فأقل الطعام.
- وسئل ابن المبارك رحمه الله ما دواء قسوة القلب، قال: قلة الملاقاة (تقليل الاختلاط) .
- وعن عبد الله بن خبيقٍ قال: خلق الله القلب مساكن للذكر، فصادف مساكن للشهوات، ولا يمحو الشهوات من القلوب إلا خوف مزعج، أو شَوْق مُقْلِق.
- وعن إبراهيم الخواص قال: دواء القلوب خمسة أشياء؛ قراءة بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين.
- قال رجل لحسن البصري رحمه الله؛ يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي، قال أذبه بالذكر.

- قال الحارث بن أسد؛ بلية العبد؛ تعطيل القلب من فكره في الآخرة، حينئذ تحدث الغفلة في القلب.
- قالت رابعة؛ شغلوا قلوبهم بحب الدنيا عن الله عز وجل ولو تركوها لجالت في الملكوت، ثم رجعت بطرائف الفوائد.
- قال أحمد بن خضرويه؛ القلوب أوعية فإذا امتلأت من الحق، أظهرت زيادة أنوارها على الجوارح، وإذا امتلأت من الباطل، أظهرت زيادة ظلامها على الجوارح.
- وسئل إبراهيم بن الحسن عن سلامة القلب فقال: العزلة والصمت وترك استماع خوض الناس، ولا يعقد القلب على ذنب ولا على حقد ويهب عرضه لمن ظلمه في حقه.
- عن عمر بن الخطاب ﷺ؛ « من كثر ضحكه قلت هيبته ومن استخف بالناس

=

Copyrighted material

الـــنفس[1] ، وضـــيقِ الـــصدر بالـــشهوات[2] ، وفقـــدان حـــلاوة

=

استَخف به ومن أكْثر من شيء عُرف به ومن كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطُهُ قلّ حياؤه ومن قل حياؤه قلَّ ورعه ومن قل ورعه مات قلبه ومن مات قلبه دخل النار».

- وعن الحسن البصري أنه قال: «إن فساد القلوب من ستة أشياء؛ أولها يذنبون برجاء التوبة، ويتعلمون العلم ولا يعملون، وإذا عملوا لا يخلصون، ويأكلون رزق الله ولا يشكرون، ولا يرضون بقسمة الله ويدفنون موتاهم ولا يعتبرون».
- عن يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى: « من كثر شبعه كثر لحمه ومن كثر لحمه كثرت شهوته ومن كثرت شهوته كثرت ذنوبه ومن كثرت ذنوبه قسا قلبه ومن قسا قلبه غرق في آفات الدنيا وزينتها».
- عن عبد الله الأنطاقي رحمه الله؛ «خمس هن من دواء القلب؛ مجالسة الصالحين، وقراءة القرآن، وخلاء البطن، وقيام الليل والتضرع عند الصباح».
- عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: " أربعة من ظلمة القلب؛ بطن شبعان من غير مبالاة وصحبة الظالمين ونسيان الذنوب الماضية وطول الأمل».
- قال عثمان ﷺ؛ «من حفظ الصلوات الخمس لوقتها وداوم عليها أكرمه الله بتسع كرامات؛ يحبه الله، ويكون بدنُه صحيحا، وتحرُسه الملائكة، وتنزل البركة في داره ويظهر على وجهه سيما الصالحين، ويلينُ قلبه، ويمر على الصراط كالبرق اللامع، وينجيه من النار، وينزله الله في جوار الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون».
- فإنك إن فعلت ذلك بعد مجاهدة نفسك (كما سنذكر لاحقا) أزلت الطلاء عن قلبك وألنته بحول الله وقوته وأصبح النور الإلهي يدخل إليه ويؤثر فيه ويحركه، إن شاء الله تعالى.

(1) ذلك أن النفس كلما اقتنصت من المعاصي ازدادت قوتها فهي كالكلب كلما أطعمته وأسمنته صار شرسا قد يأكلك، وهي كذلك تصبح عنيدة شرسة لا تكاد تنساق لك بشيء إن كان على خلاف هواها، فحاربها بالجوع والصوم الحقيقي أولاً؛ لأن الجوع هو نقطة الضعف المركزية عندها، فإن صبرت على ذلك انقادت لك رويدا رويدا بإذن الله تعالى.

(2) فهي لكثرتها ولانفتاح النفس عليها تزدحم على القلب حتى لتكاد تميته، فصار العبد كالمريض بضعف المناعة أفلا يكون مكانا لتجمع الميكروبات والجراثيم، =

Copyrighted material

الطاعـــــات[1] ، وتـــــرادفِ الأغـــــيار المانعــــــةِ مـــــن بُـــــروق شـــــوارق الأنـــــوار[2] ، واســـــتيلاء دولـــــة الهـــــوى[3] ،

=

وإن لم يتدارك بالمضادات الحيوية الإيمانية وأهمها التوبة، فستكون عاقبته وخيمة ويخشى عليه من سوء الخاتمة والعياذ بالله.

(1) إن المريض الشديد المرض قد يجد طعم العسل مرّاً، فكيف إذا مرض مكان تذوق حلاوة الإيمان وهو القلب؟ كيف تدخل إليه هذه الحلاوة وهو محاط بالسواد لا يكاد ينبض؟ سئل وهيب ابن الورد؛ أيجد لذة الطاعة من يعصي؟ فقال: لا ومنْ هَمّ (أي حتى الذي همَ بها) ، فرب شخص أطلق بصره فحُرِم اعتبار بصيرته، أو لسانه فحُرم صفاء قلبه، أو آثر شُبهة في مطعمه، فأظْلَمَ سرُّه وحُرِم قيام الليل، وحلاوة المنجاة إلى غير ذلك، وهذا أمرٌ يعرفه أهل المحاسبة.

(2) الأغيار جمع غِير وهي كل ما يحجب عن الله تعالى، فإذا توالت المعاصي على القلب اسودّت مرآته ولم تعد تستطيع عكس شوارق الأنوار وهي الواردات والإلهامات الربانية، فتراه ظلمانيا ينساق وراء كل داع وناعق للشر لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه، بل قد يرى المعروف منكرا والنكر معروفا وتختل عنده كل الموازين والعياذ بالله.

(3) يقول ابن عطاء رحمه الله في حِكَمه موضحا هذه الفقرة؛ تمكُّنُ حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال.

يقول الشيخ محمد أديب حسون رحمه الله تعالى في شرحه هذه الحكمة: " الهوى النفساني كحب الشهوات الحسية من المأكل والمشرب والملبس، وما أشبه ذلك، فهذا أمره أسهل من الهوى في القلب، وذلك كحب المراتب والمدح والعزّ والظهور على الناس بالكرامات وحب الزعامة وأشباه ذلك، فهذا الهوى أمره أصعب من الهوى النفساني؛ لأن مُتَعَلَّقُه معنوي، فالنفس تحب الرئاسة والمدح والتقدم على الأقران، وينسحب على القلب أوصافها، وكلما تقادم عليها ذلك أحبته أكثر، ففسد القلب بفسادها، وفسد الجسد كله كما جاء في الحديث الشريف، لذلك فلا يخرج منها هذه الأوصاف إلا كما قال المؤلف (ابن عطاء) ؛ لا يُخْرِجُ الشهوةَ من القلب إلا خوفٌ مُزعج أو شَوْقٌ مُقْلِق.

أي؛ بأن يرد على القلب خوفٌ من الله تعالى يزعج النفس، ويقلقها، فتكون في =

Copyrighted material

إلـــى غيـــر ذلـــك مـــن تـــرادف الارتـــياب[1] ، ونـــسيان المـــآبِ

=

قلق دائم، فإذا تمَّمَ اللهُ النعمةَ على العبد، فسار على ذلك، وعمل بمقتضى قوله تعالى: ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:175] فإذا منَّ اللهُ تعالى عليها بالحب لأهل الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ثم ارتقى الحب إلى الحضرة القدس الإلهية أي إلى مقام القرب والشهود، فأشرق نور الحضرة على القلب والنفس والجوارح بالفهم، فههنا تكون الأعراس والأفراح: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: 58].

(1) إن للشيطان سبعة مراتب يجر إليها المؤمن على الترتيب من الأعلى وحتى الأدنى، وهي أحيانا متشابكة ومتداخلة في نفس الوقت. وإن ظفر منك بمرتبة ما جعل يحاول بك الصعود للمرتبة الأعلى لأنها أخطر. وهذه المراتب هي؛ الأولى؛ يحاول إخراجك من الدين بالكلية، إما بالإلحاد أو الشرك أو الكفر؛ وذلك باستغلاله كثرة العصيان، وعدم التوبة فتصبح غير محصّن فيهجم عليك هجمة واحدة، مطلقا عليك وابلا من الشبهات والشكوك من العيار الثقيل، ويصوب نحو العقيدة والإيمان مما قد يزلزل إيمانك بالشك أو الكفر. فإن عصمك الله من ذلك انتقل إلى المرتبة الثانية؛ وهي الابتداع في الدين، كبدع الخوارج والمعتزلة، واللعين يفرح بالبدعة أكثر من فرحه بالمعصية، ذلك أنك تتوب من المعصية لمعرفتك أنها معصية، أما البدعة فلا توبة منها على الغالب لأن صاحبها يشعر أنه محق وأنه على الدين الصحيح. فإن ظفر بها حاول إعادتك إلى المرتبة الأولى، فإن لم يستطع انتقل إلى المرتبة الثالثة؛ وهي مرتبة فعل الكبائر. فإن فشل جرّك إلى المرتبة الرابعة وهي مرتبة فعل الصغائر وهوّنها لديك فإن ظفر منك بها انتقل إلى المرتبة الثالثة ثم الثانية فالأولى، فإن عصمك الله من الصغائر انتقل بك إلى المرتبة الخامسة وهي مرتبة التوسع في المباحات، ومنها يجرك إلى الشبهات في المطعم والملبس وغيره، وخصوصا تضييع الأوقات بالزيارات والرحلات والمطاعم والنزهات، فإن لم يظفر منك بذلك انتقل إلى المرتبة السادسة؛ وهي فعل المفضول بوجود الفاضل، كمن يصلي الظهر بسرعة شديدة وحتى دون الإتيان بالسنن بحجة أنه تأخر عن موعد محاضرة إسلامية يلقيها على الناس الحديثي الهداية. لا شك أن المحاضرة عمل

=

Copyrighted material

وطولِ الحساب[1] .

- ولو لم يكن في المعصية إلاّ تَبَدُّل الاسم لكان ذلك كافيا؛ فإنك إذا كنتَ طائعاً تُسمّى بالمُحسنِ المُقْبِلِ، وإذا كنتَ عاصياً انتقلَ اسمُكَ إلى المُسيءِ المُعرِض.

هذا في انتقال الاسم فكيف بانتقال الأثَر من تبَدُّل حلاوة الطاعة بحلاوة المعصية، ولذاذَةِ الخِدْمة بلَذاذَة الشهوة؟! هذا في تبدُّل الأثر فكيف

=

فاضل ومطلوب ولكن ليست أهم من إتمام الصلاة بجميع عناصرها! أو كمن بات يتهجد لله حتى أتعب نفسه كثيرا فاستلقى فنام وخسر صلة الفجر حاضرا في المسجد، وقس على هذا... فإن لم يظفر منك بهذا انتقل إلى المرتبة السابعة وهي مرتبة تسليط أعداء خارجين عليك ليفسدوا عليك دينك. كتسليط الأب على الولد ليمنعه من الذهاب إلى المسجد، أو كمن سلط عليها أمها لا تريد إلباسها الحجاب وهي تريده، أو تسليط عليك الأجهزة ليرهبوك أو يعذبوك أو أو... وهذا لا يسلم منه أحد حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(1) ومن آثار المعصية نسيان القبر والدود والسؤال فيه وطول الحساب يوم القيامة؛ فقد روى البخاري: " ليقفنّ أحدكم بين يدي الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له؛ ألمْ أنعِم عليك؟ ألم أوتك مالا؟ فيقول بلى، فيقول؛ ألم أُرسل إليك رسولا؟ فيقول؛ بلى، ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار، ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار، فليتقِيَنَّ أحدكم النار ولو بشق تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة.

هذا وإن للمعاصي آثارا لم يذكرها ابن عطاء الله في هذا الكتاب استكملناها من كتب أخرى وهي: قلة التوفيق وفساد الرأي وخفاء الحق، وفساد القلب، وخمول الذكر، وإضاعة الوقت، ونُفْرة الخلْق والوحشة بين العبد وربه، ومنع إجابة الدعاء وقسوة القلب، ومحق البركة من الرزق والعمر، وحرمان العلم ولباس الذلّ، وإهانة العدوّ وضيق الصدر، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وطولِ الهمّ والغمّ وضنك المعيشة وكسف البال. كل ذلك يتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولد الزرع من الماء، والإحراق عن النار، وأضداد هذه تتولد عن الطاعة". .

Copyrighted material

بتبدّل الوصف؟ بعد أن كنتَ موصوفاً عند الله بمحاسن الصفات، ينعكسُ الأمرُ فتتصفُ بمساوئ الحالات. هذا في تبدُّل الوصف فكيف بتبدّل المرْتبة؟ فبعد أن كنتَ عند الله من الصالحين صِرْتَ عنده من المُفسدين، وبعد أن كنتَ عند الله من المتقين صرت عنده من الخائنين[1] .

كيفية التخلص من المعصية

-فإن كانت الذنوبُ مُنفَتِحةً في وجهك فاستغِثْ بالله، والجأ إليه، واحْثُ التراب على رأسِك وقل؛ اللهم انقلني من ذُلِّ المعصية إلى عزِ الطاعة. وزُرْ ضرائح الأولياء والصالحين وقل؛ يا أرحم الراحمين[2] !

---

(1) إن أحدنا إن كان والده قد وضعه في مرتبة جميلة وهو راضٍ عنه لسلوكه المستقيم ولسيرته العطرة، يكاد يذوب خجلا منه إن رآه متلبسا بأمر فيه شيء من العيب أو الحرام، ذلك أن والده الآن ينظر إليه بنظرة غير الأولى، فالصدمة تكون شديدة على الولد والوالد، فالولد بعدما كان نظيفا أصبح متسخا، وبعد أن كان في مرتبة عالية، انكسرت رتبته، وصار ينظر إلى أبيه بعين ملؤها الذل والصغار، والأب ينظر إليه بعين ملؤها الغضب والاستحقار، ولله المثل الأعلى، فأنت إن كنت على معصية بإصرار عليها فهل تنتظر أن تظل أوصافك عند الله كما كانت قبل المعصية؟ هيهات! .

(2) أولا زيارة القبور أو المقابر مشروعة لكثيرٍ من الأدلة منها قوله صلى الله عليه وسلم؛ كنت نهيتكم عن زيارة القبور فقد أُذن لمحمد في زيارة قبر أمه فزوروها فإنها تذكر الآخرة (الترمذي) وكذلك ثبت في صحصح مسلم أن النبي كان يذهب كل ليلة إلى البقيع يسلم على أهله ويدعو ويستغفر لهم.

ثم إن ابن عطاء نبهك بقوله؛ "وقل يا أرحم الراحمين "حتى لا يتوهم واهم أن المدعو هو صاحب الضريح بل المدعو بِهِ هو صاحب الضريح والمدعو هو الله تعالى. وليس الدعاء بالأولياء الصالحين المقطوع بصلاحهم أي خدش في العقيدة؛ لأن ذلك لا يدخل في مفهوم العبادة التي هي غاية الخضوع والتذلل والحب مع اعتقاد بعض صفات الربوبية للمدعو، وهذا ما لا يعتقده أحد من المسلمين ولا يخطر له على بال. أما الأدلة فكثيرة منها:

=

Copyrighted material

=

1 - عن عتبة بن غزوان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أضل أحدكم شيئا أو أراد عوناً وهو بأرض ليس بها أنيس فليقل؛ يا عباد الله أعينوني، فإن لله عباداً لا نراهم. [رواه الطبراني ورجاله وثقوا على ضعف في بعضهم إلا أن يزيد بن علي لم يدرك عتبة].

2 - وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن لله ملائكة في الأرض سوى الحفظة يكتبون ما يسقط من ورق الشجر، فإذا أصاب أحدكم عَرْجة بأرض فلاة فليناد؛ أعينوني يا عباد الله. [رواه الطبراني ورجاله ثقات].

3 - وعن عبد الله بن مسعود أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فلينادِ؛ يا عباد الله احبسوا يا عباد الله احبسوا، فإن لله حاضراً في الأرض سيحبسه. [رواه أبو يعلى والطبراني وهو ضعيف].

4 - وجاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول بعد ركعتي الفجر؛ اللهم رب جبريل وإسرافيل وميكائيل ومحمد النبي صلى الله عليه وسلم أعوذ بك من النار. قال النووي في الأذكار؛ رواه ابن السني، وقال الحافظ بعد تخريجه؛ هو حديث حسن وقد أشار ابن علان في شرحه الأذكار فقال: التوسل إلى الله بربوبية هذه الأرواح العظيمة. وقد صرح في الشرح ج2 ص 29 بمشروعية التوسل فقال معلقاً على حديث؛ اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تعيذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك. [وهذا الحديث هو حديث حسن كما قال الحافظ ابن حجر من نتائج الأفكار ج1 ص 272 وكذلك قال العراقي في تخريج أحاديث الأحياء ج1 ص 323] قال ابن علاّن فيه التوسل بحق أرباب الخير على سبيل العموم من السائلين ومثلهم بالأولى الأنبياء والمرسلون.

5 - يقول الشيخ محمود الآلوسي رحمه الله في تفسيره تحت قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ ﴾ ، وإن التوسل بجاه غير النبي صلى الله عليه وسلم لا بأس به أيضاً إن كان المتوسّل بجاهه مما عُلم أن له جاهاً عند الله تعالى كالمقطوع بصلاحه وولايته وأما من لا يقطع في حقه بذلك ففيه جرأة عظيمة على الله. أ. هـ.

=

Copyrighted material

مجاهدة النفس

أتريد أنْ تجاهد نفسَك وأنت تُقَوّها بالشَّهوات حتى تَغْلِبَك؟! ألا فقد جَهِلتَ!فالقلبُ شجرةٌ تُسْقى بماء الطاعة، وثمراتُها مَواجيدها؛ فالعين ثمرتُها الاعتبار، والأُذُنُ ثمرتها الاستماع للقرآن، واللسان ثمرته الذِّكر، واليدان والرِّجلان ثمرتهما السعيُ في الخيرات، فإذا جفَّ القلبُ[1] (بأن قطعت عنه ماء الطاعة) سقطتْ ثمراتُه، فإن أَجْدَبَ (فعلاجه) فأَكْثِرْ من الأذكار، ولا تكُنْ كالعليل يقول؛ لا أتداوى حتى أجِدَ الشفاء، فيُقال له؛ لا تجدُ الشفاء حتى تتداوى[2]، فالجهاد ليس معه حلاوة وما معه إلاّ رؤوس

=

6 - أورد الخطيب في أوائل تاريخه بسند صحيح ورجاله كلهم ثقات أن الإمام الشافعي كان يتوسل بأبي حنيفة رضي الله تعالى عن الإمامين.

(1) يقول ابن مسعود رضي الله عنه: " للقلوب شِرَّةٌ (نشاط) وإقبال، وفترةٌ وإدبار، فاغتنموها عند شِرَّتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها". وقال ابنُ المبارك رحمه الله: "القلب مثلُ المرآة؛ إذا طالَ مكْثُها في اليد صَدِئَتْ، وكالدابة إذا غفل عنها صاحبها هزُلَتْ، وقال بعض الحكماء؛ مَثَل القلب مثل بيت له ستة أبواب، ثم قيل لك؛ احذَر ألاّ يدخل عليكَ من أحد الأبواب شيء، فيفسدَ عليك البيت، فالقلب هو البيت، والأبواب؛ اللسان، والبصر، والسمع، والشمّ، واليدان والرجلان، فمتى انفتح بابٌ من هذه الأبواب بغير عِلْمٍ ضاع البيت!

(2) وهذا من مكائد الشيطان، أن يعمق في نفي المبتلى بالمعاصي أنه لا يصلح للذكر ولا لحضور مجالس الذكر بحجة أنه متدنس بالخطايا، فإن أراد العودة فعليه أولا أن يقلع عن خطاياه بنفسه، وهذا غرور لأن النفس ستظل تشده والشيطان إلى حمأة الخطايا ووُحولِها ولا يزال العبد في هذا التفكير حتى يلاقي سوء الخاتمة والعياذ بالله. بل على العبد المبتلى أن يذكر الله وأن يستغيث به - كما مر - ويزور ضرائح الأولياء ويدعو الله عندهم لأن بقعهم طاهرة وهي مظنة استجابة الدعاء، فالعلاج هو الانطراح بين يدي الله على أن يتولى هو بلطفه ورحمته أن يطهرك مما أنت فيه. وهذه المكيدة الشيطانية تنطلي حتى على الملتزمين؛ يقول له

=

Copyrighted material

الأسِنَّة، فجاهدْ نفسك، هذا هو الجهاد الأكبر[1]، واعلم أن الثكلى لا عيد

=

الشيطان أنت غير مؤهل لتدعو الناس حتى تتطهر من عيوب نفسك وعند الانتهاء من عيوبها اخرج وأصلح عيوب الآخرين! وهيهات أن ينتهي العبد من إصلاح نفسه، فإنه كلما انتهى من مرحلة واجهته أخرى حتى آخر عمره، فقصد الشيطان أن يسوف وأن يمنعك من الإصلاح فإياك أخي أن تصغي له، واعلم أن خلطتك مع الناس أثناء دعوتك لهم أكبر مدخل لإصلاح نفسك فلا تفوته عليك.

(1) المجاهدة؛ المجاهدة في اللغة المحاربة وفي الشرع؛ محاربة النفس الأمارة بالسّوء بتحميلها ما يشق عليها بما هو مطلوب في الشرع. [التعريفات للجرجاني].

لوازم مجاهدة النفس:

أ - من لوازم مجاهدة النفس؛ المحاسبة، فكيف يحاسب المسلم نفسه؟ ذكروا أن محاسبة النفس تكون كالتالي:

1- البدء بالفرائض فإذا رأى بها نقصا تداركه.

2- ثم المناهي، فإذا عرف أنه ارتكب منها شيئاً تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية.

3- محاسبتها عن الغفلة ويتدارك ذلك بالذكر والإقبال على الله.

4- محاسبتها على حركات الجوارح؛ كلام اللسان، مشي الرجلين، وبطش اليدين ونظر العينين وسماع الأذنين. ماذا أردت بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجه فعلته؟

وعلى المرء أن يعرف أن حق الله في الطاعة ستة أمور:

1- الإخلاص.

2- النصيحة لله فيه.

3- متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

4- شهود مشهد الإحسان فيه. [الإتقان]

5- شهود منة الله عليه فيه. [حتى لا يقع المرء بالعجب]

6- شهود تقصير العبد فيه.

يقول ميمون بن مهران؛ لا يكون العبد تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه، ولهذا قيل النفس كالشريك الخوّان إن لم تحاسبه ذهب بمالك.

=

Copyrighted material

=

ومجاهدة النفس خمسة أنواع:
1- مجاهدتها في دفع ما غرتك به من شهوات.
2- مجاهدتها في تعلم العلم.
3- مجاهدتها على العمل بهذا العلم.
4- مجاهدتها في دعوة الناس للعمل بهذا العلم.
5- مجاهدتها في الصبر على التعلّم والتعليم والعملِ بهذا العلم والدعوة إليه.

ب - ومن لوازم المجاهدة؛ المراقبة لله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴾ [الأحزاب: 52]. أي وما زال لأن كان هنا تفيد الاستمرار. والمراقبة هي علم العبد باطلاع الرب عليه، واستدامته لهذا العلم مراقبته لربه وهذا أصل كل خير، فإذا حاسب المسلم نفسه كما ذكرنا على ما سلف وأصلح حاله ولازم طريق الحق وأحسن مراعاة قلبه في ما بينه وبين الله تعالى فقد راقب الله تعالى في عموم أحواله. قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس: 61]. قال تعالى: ﴿ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ ﴾ [الرعد: 33].

سُئل المحاسبي رحمه الله تعالى عن المراقبة فقال: "أولها علم القلب بقرب الرب تعالى"، وسئل ذو النون المصري؛ بم ينال العبد الجنة؟ فقال: "بخمس؛ استقامة ليس فيها رَوَغان واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب".

وقال رجل، سأل الجنيد؛ بم أستعين على غض البصر؟ فقال: "بعلمك أن الناظر إليك أسْبقُ من نظرك إلى المنظور إليه".

ج - ومن لوازم المجاهدة؛ المعرفة بالله تعالى وعلى الأخص معرفة مقامه جلّ جلاله الذي يثمر الخوف والخوف يثمر الابتعاد عن الهوى، يقول تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾.

وقيل؛ "والذي يخاف مقام ربه لا يقدم على معصية، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشري قاده خوف هذا المقام الجليل إلى الندم والاستغفار والتوبة فظل في دائرة الطاعة ونهي النفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة. فالهوى

=

Copyrighted material

=

هو الدافع القوي لكل طغيان وكل تجاوز، وكل معصية، فالجهل سهل علاجه ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها. والخوف من الله تعالى هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة وقَلَّ أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى، ومن ثمّ يجمع بينهما السياق القرآني في آية واحدة".

إن معرفة مقام الله عزّ وجل فرعٌ عن العلم بالله، والخشية والخوف من الله تعالى تكون على حسب العلم به، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد الناس معرفةً بالله تعالى وبمقامه، لذلك كان أشد الناس خوفاً منه تعالى وذلك يعرف من قوله صلى الله عليه وسلم كما جاء في الحديث المتفق على صحته؛ ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟ فوالله إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية.

وقد قال العارفون؛ إن مقام المعرفة بالله تعالى حق المعرفة والخشية منه تعالى، إذا اكتملا لصاحبهما، انتهى إلى درجة المعرفة حق المعرفة والخشية حق الخشية؛ ظهرت عليه آثارهما، وصحت له أحكامهما، كما روى الحكيم الترمذي - ورمز لضعفه - عن معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً؛ لو خفتم الله تعالى حق خيفته لعلمتم العلم الذي لا جهل معه ولو عرفتم الله تعالى حق معرفته لزالت لدعائكم الجبال.

ما ذكر الهوى في القرآن إلاّ مذموماً فقد قال الله تعالى: [ص: 26]. ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [القصص: 50]. ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجاثية: 23] ويقول صلى الله عليه وسلم؛ الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

ويقول الإمام علي كرم الله وجهه؛ "إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتين؛ طول الأمل واتباع الهوى، فأما طول الأمل فينسي الآخرة وأما اتّباع الهوى فيصد عن الحق".

ويقول ذو النون المصري رحمه الله تعالى: "مفتاح العبادة الفكر وعلامة الإصابة مخالفة النفس والهوى ومخالفتها ترك شهواتهما". قال سهل التستري؛ "ما عبد

=

Copyrighted material

لها، بل العيدُ لمن قَهَرَ نفسه، لا عيد إلا لمن جَمعَ شَمْلَه(1) .

جاز بعضهم على دير راهب فقال له؛ يا راهب، متى عيد هؤلاء القوم؟ قال: يوم يغفر الله لهم(2) .

وما مثالك مع نفسِك إلاّ كَمَنْ وَجَدَ زوجته في حانة خمَّار، فأتاها بالملابس الحسنة والمآكل الطيبة، وإذا تَرَكَتِ الصلاةَ يُطعمها الهرائس

=

إنسان ربه كمخالفة النفس والهوى".

د - ومن لوازم المجاهدة الصبر فقد ذكر الله للصابرين ثمانية أنواع من الكرامة؛ أولها المحبة، قال: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:146] والثاني؛ النصر قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:153] والثالث؛ غرفات الجنة، قال: ﴿ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ [الفرقان: 75] والرابع الأجر الجزيل: قال: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: 10] والأربعة الأخرى المذكورة في هذه الآية، ففيها البشارة، قال: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ والصلاة والرحمة والهداية ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

والصابرون على أربعة أوجه: صبرٌ على البلاء، وهو منع النفس من التسخيط والهلع والجزع. وصبرٌ على النعم وهو تقييدها بالشكر، وعدم الطغيان، وعدم التكبر بها. وصبرٌ على الطاعة بالمحافظة والدوام عليها. وصبرٌ عن المعاصي بكفّ النفس عنها، وفوق الصبر التسليم وهو ترك الاعتراض والتسخيط ظاهرا وترك الكراهة باطنا وفوق التسليم الرضا بالقضاء وهو سرور النفس بفعل الله وهو صادر عن المحبة، وكل ما يفعل المحبوب محبوب.

(1) يقول صلى الله عليه وسلم: " من كانت الدنيا همّه جعل الله فقره بين عينيه وفرَّق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدّر له، ومن كانت الآخرة همّه جمع الله شمله... " (أحمد والترمذي) .

(2) هؤلاء القوم هم الذين يجاهدون أنفسهم بالطريقة السالفة الذكر، فهؤلاء لا عيد لهم إلا عندما يغفر الله لهم، ويعرفون ذلك ببشارة ملك الموت عند قبض الروح. فتأمل إلى متى يظلون يجاهدون أنفسهم؟.

Copyrighted material

والألوان[1] .

بقي بعضهم أربعين سنةً لا يحضر الجماعة لِما يَشُمُّ من نَتْن قلوب الغافلين[2] ، فما أَعْرَفَكَ بمصالِح الدنيا، وما أَجْهَلَك بمصالح آخرتك[3] !

---

(1) العاقل إن وجد زوجته في مكان مُريب أو على أمرٍ مريب فأقلّ ما يفعله بها هو أن يطلقها بالثلاث، فمن وجدناه يكافئها على خيانتها له اتهمناه في كرامته واعتبرناه ديّوثا أو أحمقاً. فمن عامل نفسه وهو يعلم أنها تخونه وتورده المهالك معاملة جميلة مليئة بالمكافآت فهو أحمق لا محالة، فإن كان فيه غيرة عليها منعها من غيها حتى تسلمَ هي ويسلم هو معها.

(2) قد تصفو القلوب بالمجاهدات والنوافل بالتقرب إلى الله تعالى حتى يصير العبد كما جاء في الحديث الصحيح: " كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به.. الخ. فبصفاء القلوب وقربِها من الله وحبه لها يُمتّعها الله بقوى غريبة جدا، كما فعل سيدنا عمر مع سارية، وكما سمع الصحابة تسبيح الحصى في كف النبي عليه الصلاة والسلام، ومن المعلوم أن الملائكة تتباعد من العبد إذا عصى من نتن رائحة معاصيه، فلا عجب أن يشم بعض الأولياء رائحة ذنوب الخلائق، لشدة صفاء قلبه، فيكون تركه لصلاة الجماعة حالة استثنائية مرَّ بها لا تلبث أن تزول بعد أن ينتقل إلى مقام التمكُّن والشهود. وقد ورد أن الحارث المحاسبي رحمه الله كان يعرف الحلال من الحرام من عِرْقٍ في يده ينعر عليه إن كان ما يتناوله من الحرام، وكذلك ذو النون المصري كان إذا مد يده إلى شيء من المأكل فيه شيء من الحرام نعر في يده ستون عرق، وقد كان بعض الأولياء إن كان مريضا خرج إلى البرية، فتحدثه الأعشاب منها أن كلني فأنا الدواء لمثل مرضك، وليس ذلك على الله بعزيز.

(3) تراه مهندسا خبيرا تتصل به الدول لحلِ المعضلات، فإن سها في الصلاة لا يعرف كيف يجبر السهو؟! أو طبيبا نطاسياً يعرف كل أنواع المعقمات ولكنه يجهل كيفية الماء الصالح للوضوء؟! وإن كان تاجراً يريد أن يشتري صنفا ما، تراه يسأل عنه الخبراء؛ كيف يحفظه؟ وما الذي يتلفه؟ وما مدة الصلاحية..... وغير ذلك، وإن جاء الصيام تراه لا يكلف خاطره بالسؤال عن المفطرات!!
يقول صلى الله عليه وسلم؛ إن الله يكره كل جعظري جواظ صخاب بالأسواق،
=

Copyrighted material

مثال الدنيا

مِثال الدنيا عندك كمن خرج إلى الضَّيْعة، واجتهد فَخَزَنَ الأقوات، فأنت قد أتيت بما يعود نَفْعُه عليك في وقته، وإنْ خَزَنتَ حيَّاتِ الشهوات وعقارب المعصية هَلَكْتَ. كفى بك جهلا أن الناس يَخزنون الأقوات لوقت حاجتهم إليها، وأنتَ تخْزنُ ما يضرك وهي المعاصي! هل رأيتَ منْ يأتي بحيات فيربيها في داره؟! فها أنت تفعل ذلك.

بين الصغائر والكبائر

وأضرُّ ما يُخافُ عليك مُحَقِّرات الذنوب؛ لأن الكبائر(1) ربما

=

جيفة في الليل حمارٌ بالنهار، عالمٌ بأمر دنياه جاهل بأمر أخراه".

(1) حتى نستطيع التفريق بين الصغيرة والكبيرة سنعطي كل علامات الذنوب المعتبرة من الكبائر، فيكون غيرها من الصغائر. فعلامات الكبائر: 1 - إيجاب الحدّ على المعصية كجلد أو رجم أو قتل 2 - أن يسميها الشارع كبيرة أو أكبر الكبائر. 3 - وصف المعصية بأنها موبقة كقوله صلى الله عليه وسلم: " اجتنبوا السبع الموبقات... 4 - وصف المعصية بأنها فاحشة. 5 - وصف المعصية بأنها من عمل الشيطان وعمل الشيطان لا يكون إلا كبيرة، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ.. ﴾ [المائدة: 90]. 6 - وصف المعصية أو فاعلها بالفسق. 7 - الخبر بأن الله تعالى يحارب فاعلها مثل الربا. 8 - الخبر بأن الله لا يحبها أو لا يحب فاعلها كقوله تعالى ﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ..إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾. 9 - لعن فاعلها. 10 - وصف فاعلها بأن الله لا ينظر إليه. 11 - الإخبار بأن فاعلها لا يدخل الجنة. 12 - الإخبار بتحريم الجنة عليه. 13 - الإخبار بأن فاعلها برئت منه ذمة الله أو رسوله. 14 - الإخبار بأنها حالِقة تحلق الدين. 15 - الإخبار بنزع الإيمان منه أو نفيه عنه. 16 - الإخبار بغضب الله عليه. 17 إلجامه بلجام من نار. 18 - الإخبار بعدم قبول صلاته مثلا. 19 - وصفه بالكفر أو الإشراك مثلا. 20 - وصفه بالخسران أو بالضلال أو بالعبير "ليس منا". 21 - وصفه بالخلود في النار. 22 -

=

Copyrighted material

استعظمتها فتُبتَ منها، واستحْقَرْتَ الصغائر[1] فلم تتُب منها. فمثالك كَمَن وجد أسداً فخَلَّصه الله منه، فوجد بعده خمسين ذئباً فغلبوه، قال الله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: 15] والكبيرة حقيرة في كرم الله، وإذا أصررتَ على الصغيرة صارت كبيرة[2]؛ لأنَّ السُّمّ يقتل

=

إلحاقها بكبيرة معروفة. 23 الإخبار بأنها تهدي إلى الفجور أو وصف صاحبها بالنفاق أو أن صاحبها لم يزل في سخط الله أو سخط عليه أو أن مرتكبها ضادّ الله عز وجل. 24 - الإخبار بأن الله يسكنه ردغة الخبال، أو بأن الله حجب التوبة عن مرتكبها. 25 - الإخبار بأن المعصية تأكل الحسنة، أو الإخبار بأنها ليست من الإسلام، أو الإخبار بأن الله خسف بمرتكبها، أو أن مرتكبها لا يسأل اللهُ عنه. 26 - الإخبار بأن الله تعالى يكون خصمه. أو الإخبار بأن مرتكبها لا يجد عَرْف الجنة. 27 - ومنها التوعد عليها بالويل، أو بحبوط عمله، أو بالتوعد بفضيحة مرتكبها. أو الإخبار بأن الله يمقت فاعلها، أو أن فاعلها خارج عن الإسلام. 28 - الإخبار بأن فاعلها يكلف يوم القيامة بما لا يستطيعه. 29 ومنها توعد فاعلها بعذاب شديد في إحدى جوارحه. 30 - الإخبار بأن الله يطبع على قلبه.

هذه هي علامات الكبائر أخذناها من كتاب تنوير البصيرة للمحدث عبد الله الغماري رحمه الله.

وما سوى ذلك يكون من الصغائر ما اجتنب الإصرار عليها، فإنها تكفرها الأعمال الصالحة، يقول صلى الله عليه وسلم: " أرأيتم لو أن نهَراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ما تقول ذلك يُبقي من دَرَنه. قالوا؛ لا يبقي من درنه شيء. قال فذلك مِثْلُ الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا. (البخاري) .

(1) يقول صلى الله عليه وسلم: " يا عائشة إياك ومحقرات الأعمال فإن لها من الله طالبا" (ابن ماجه) .

(2) يقول ابن عطاء في حِكمه؛ لا يعظم الذنب عندك عَظَمةً تصُدُّك عن حسن الظن بالله تعالى، فإن من عرف ربَّه استصغر في جنب كرمه ذنبه لا صغيرة إذا قابلك عدله ولا كبيرة إذا واجهك فضله.

واجب تصغير الذنب؛ فإن من عرف ربه استصغر في جنب كرمه ذنبه، وهذا نظر إيماني وفهم عرفاني يقول؛ من عرف ربه غاب عن رؤية ذنبه لصفائه في نفسه

=

Copyrighted material